مُقرَّر تفسير (٣)

تَفْسِيْرُ سورتَيْ مَرْيَمَ والنُّورِ.

الطبعة الأولى: عام: ١٤٤٢هـ

	معايير المَنْهج
١	أن يشرح الطالبُ الغريبَ الواقع في الآيات.
٢	أن يُبيِّنَ التفسيرَ الإجمالي للآيات.
٣	أن يعرف المرويَّ بالمأثور في الآيات، ويجمع أو يرجح بين الأقوال فيها.
٤	أن يذكر الصحيحَ في نزولِ الآياتِ والسُّورِ وأسبابِ النزول.
٥	أن يذكرَ الصحيحَ في القراءات القرآنية، التي لها أثرٌ في المعنى.
٦	أن يذكرَ الصحيحَ في فضائلِ الآياتِ والسور.
٧	أن يُبينَ الصحيحَ في الناسخ والمنسوخ.
٨	أن يعرفَ كيفيةَ استنباطِ الأحكامِ من خلال الآيات، وكيفية دلالتها عليه.
٩	أن يوفقَ بينَ الآياتِ التي يبدو تعارضها مع آياتٍ أخرى.
١٠	أن يَعرِفَ أهمَّ المناسبات.
١١	أن يُوضِّحَ بعضَ النُّكـاتِ البيانِيَّـة.

اللون الأخضر: الغريب / اللون الأزرق: البلاغة والمناسبات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيْمِ

الحمدُ للّهِ ربِّ العالمين، والصلاةُ والسّلامُ على سيِّدِ المرسلين، نبيِّنا محمد وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ، أما بعد.

فهذا تفسيرٌ يحتوي على معاييرِ لجنة المناهج في الجامعات، مع تعديلاتٍ وإضافاتٍ بسيطةٍ عليها، وهي باختصارٍ:

تفسيرُ القرآنِ الكريمِ ببيانِ الغريبِ وجُعِلَ باللّونِ الأخضرِ، وتفسيرُ القرآنِ بالقرآنِ وبالسُّنَّةِ الصحيحةِ واعتُمِدَ على ما صحَّحه الألبانيُّ، والاستشهادُ بأَهَمِّ الآثارِ عن الصحابةِ والتّابعينَ، واعتُمِدَ على موسوعةِ التفسيرِ المسبورِ للدّكتورِ حِكْمَت بشير، وبالصحيحِ في أسبابِ النزولِ، وذِكْرُ القراءاتِ المُتواترَةِ التي لها أَثَرٌ في المَعنى، وذِكْرُ الصحيحِ في فضائِلِ الآياتِ والسُّورِ، وبيانُ الصَّحيحِ في النّاسِخِ والمَنسوخِ، وذِكْرُ أهمِّ الأحكامِ الفقهيَّةِ على المذاهبِ الأربعةِ، وذِكْرُ أهمِّ المُناسباتِ والنُّكاتِ البيانيةِ وجُعِلَتْ باللونِ الأزرق.

نسألُ اللّهَ أن ينفعَ بهِ وأن يجعلَهُ خالصًا لوجهِهِ الكريم.

سُوْرَةُ مريم. وهي: مكِّيَّة.

﴿كهيعص ﴿١﴾﴾ هذه الحروفُ المُقطَّعَةُ، **والمُرادُ بها:** حُروفٌ هِجائِيَّةٌ لَيْسَ لها مَعْنىً في ذاتِها.

وقيلَ: حُروفٌ هِجائِيَّةٌ لها مَعْنىً: وأشهرُ ما قِيلَ في هذا القولِ: أَنَّها مِمّا استَأْثَرَ اللّهُ بعِلمِهِ واللّهُ أعلمُ بِالمُرادِ مِنها.

وقِيلَ: يدُلُّ كلُّ حرفٍ منها على معنىً ودلالةٍ.

وأشهرُ ما قيلَ في الحكمةِ مِنها: الإشارةُ بهذهِ الأحرُفِ إلى إعجازِ القُرآنِ الكريمِ وأنَّهُم لا يستطيعونَ أن يأتوا بمثلِهِ مع أنَّهُ مُرَكَّبٌ مِن هذهِ الأحرُفِ التي يتكلَّمُ بها العربُ، ولذا يكثُرُ ذِكرُ القرآنِ والتَّحدّي بهِ والثناءُ عليهِ بعدَها.

وقيل: فواتحٌ افتتحَ اللّهُ بها القرآنَ.

وقِيلَ: جيءَ بِها للتَّنبيهِ ولَفْتِ الانتباهِ.

وقيل: أسماءٌ لِلسُّورِ، كما وردَ في حديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الجُمُعَةِ فِي صَلاَةِ الفَجْرِ الم تَنْزِيلُ السَّجْدَةَ، وَهَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ"(١).

---

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْه: رَواهُ البُخارِيُّ فِي صَحيْحِهِ (رقم:٣٨٨٧)، ومُسْلِمٌ فِي صَحيْحِهِ عَن ابنِ عبّاسٍ ﷺ (رقم:٨٧٩).

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾﴾

هذا الذي نتلوهُ عليكَ: ذِكْرُ اللهِ رحمتَهُ التي رحمَ بها ﴿عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾﴾ وهو مِن أنبياءِ بني إسرائيلَ، والدُ يَحْيى عليه السلامُ، وزوجُ إيشاع أختِ حنَّةَ، وحنَّةُ والدةُ مَريمَ أُمِّ عيسى عليه السلام، عَنْ أَنَسٍ ﷺ -في حديثِ الإسراءِ والمعراجِ- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **(فَإِذَا أَنَا بِابْنَيْ الْخَالَةِ عِيسَى بنِ مَرْيَمَ، وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّاءَ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا)** [١]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **(كَانَ زَكَرِيَّاءُ نَجَّارًا)**[٢].

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾

﴿إِذْ نَادَى﴾ دَعَا ﴿رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ سِرًّا؛ ليكونَ: أقربَ إلى الإجابة، وأبعدَ عنْ الرِّياءِ، وقيلَ: خوفًا مِنْ قومِهِ.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ﴾ رَقَّ وضَعُفَ ﴿الْعَظْمُ مِنِّي﴾ كنايةً عَنْ الضَّعْفِ ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ كَثُرَ وانْتَشَرَ الشَّيْبُ في رأسِي، استُعيرَ اشتعالُ النارِ لِظهورِ الشيبِ في الرأسِ، كنايةً عن الهَرَمِ ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾ لم أكن خائبًا، محرومًا مِن إجابةِ دُعائي.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ قرابتي، وعَنْ مجاهدٍ: العَصَبَةُ[٣]، ألّا يقوموا بِدِينِكَ بعد موتي؛ لِانشغالِهم بالدُّنيا ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ عقيمًا لا تَلِدُ ﴿فَهَبْ لِي﴾ أَعْطِني وارزُقْنِي ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ مِنْ عندِكَ ﴿وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾ ولَدًا ووارِثًا. كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾[آل عمران] ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾[الأنبياء]

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾

---

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْه: رَواهُ البُخارِيُّ في صَحيْحِهِ (رقم:٨٩١)، ومُسْلِمٌ في صَحيْحِهِ (رقم:١٦٢).

(٢) رواهُ مُسْلِمٌ في صَحيْحِهِ (رقم:٢٣٧٩).

(٣) رواه الطَّبَريُّ في تَفسيرِهِ (١٥/٤٥٦).

﴿يَرِثُنِي﴾ يَرِثُ النبوّةَ والعِلْمَ عني ﴿وَيَرِثُ مِنْ﴾ أجدادِهِ: ﴿آلِ يَعْقُوبَ﴾ وهو: يعقوبُ بنُ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ عليهِم السلامُ، المُلقَّبُ بـ: إسرائيْلَ ﴿وَاجْعَلْهُ﴾ صيِّرْهُ ﴿رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ فعيل بِمعنى: مفعول، أيْ: مرضيًّا عنْهُ في دينِهِ وخُلُقِهِ؛ لِيحمِلَ أمانةَ النُّبوَّةِ.

كما قال تَعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾[النمل:١٦]، وعَنْ أَبِي هُرَيرةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قال: **(إِنَّا مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ)**(١)، وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ قالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **(إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ)**(٢).

﴿يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾

فاستجابَ اللهُ دُعاءَهُ، وناداهُ: ﴿يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ نُخبِرُكَ بِما يَسُرُّكَ، بأَنْ رَزَقْناكَ: ﴿بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ لم نُسمِّ أحدًا قبلَه بهذا الاسمِ.

كما قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾[آل عمران:٣٩] ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾[الأنبياء:٩٠].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾

﴿قَالَ﴾ زكريّا مُتعجِّبًا مِن قُدْرةِ اللهِ: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ كيفَ ومِنْ أَيْنَ يُولَدُ لي ولَدٌ! ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ يُبْسُ العَظْمِ ونُحولُه. أيْ: صُرتُ يابِسًا مِن كِبَرِ سنِّي!.

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾

﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾ قال المَلَك: الأمرُ عجيبٌ كما قلتَ: أنَّ امرأتَك لا تَلِدُ، وأنَّكَ كَبُرْتَ وضَعُفْتَ، ولكنْ ﴿قَالَ رَبُّكَ: هُوَ﴾: خلْقُ يحيى من أمٍّ عاقِرٍ ومِن أبٍ بَلَغَ نهايةَ العُمُرِ ﴿عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ سهْلٌ ويَسِيْرٌ ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ﴾ يا زكريّا ﴿مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ وكما خلقَ أباكَ آدمَ، وكما قال تعالَى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾[مريم] ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴿١﴾﴾[الإنسان]

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾

---

(١) رواهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيْحِهِ (رقم:١٧٦١)، واللفظُ لِأحمدَ (رقم:٩٩٧١).

(٢) رواهُ أبو داوُد فِي سُنَنِهِ (رقم:٣٦٤١)، والتِّرمذيُّ فِي سُنَنِهِ (رقم:٢٦٨٢)، وابنُ ماجةَ فِي سُنَنِهِ (رقم:٢٢٣).

﴿قَالَ﴾ زكريّا: يا ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ علامةً يطمئِنُّ بها قلبِي تدُلُّ على حصولِ ما بشّرتني بِهِ ﴿قَالَ آيَتُكَ﴾ علامَتُكَ على حصولِ ما بُشِّرتَ بِهِ ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ﴾ ألّا تستطيعَ كلامَ النّاسِ ثلاثةَ أيامٍ بِلَيالِيهنَّ ﴿سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾ وأنتَ صحيحٌ، مُعافَى، مِن غيرِ عِلَّةٍ.

وقد طلبَ زكريّا ذلك ليطمئنَّ قلبُهُ، كإبراهيمَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[البقرة:٢٦٠].

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾

﴿فَخَرَجَ﴾ زكريا ﴿عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ المَوضِعُ العالي الشَّريفُ، والمُرادُ بِهِ: المُصَلَّى أو المَسْجِد ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أشارَ وأَوْمَأَ ورَمَزَ إليهم، وكَتَبَ لهُم، وحرَّكَ شفتَيْهِ باللفظِ مِن غيرِ صوتٍ: ﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ اللهَ ﴿بُكْرَةً﴾ أوَّلَ النَّهارِ، وقيلَ: صلاةُ الفجرِ ﴿وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ آخِرَ النَّهارِ، وقيلَ: صلاةُ العصر، فَعَلِمَ زكريّا بعدمِ استطاعَتِهِ الكلامَ: أنَّ زوجتَهُ حَمَلَتْ بِيَحْيى.

وقيل: إنَّ زكريّا مُنع مِن الكلامِ إلا مِنْ ذِكْرِ اللهِ، لقولِهِ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾[آل عمران]

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾

فَوُلِدَ له يحيى، فلمّا بلغ سِنًّا يُخاطَبُ فيها قلنا له: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ﴾ التَّوراةَ ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بَجِدٍّ واجتِهادٍ وحِرْصٍ وعزيمَةٍ ﴿وَآتَيْنَاهُ﴾ أعطيناهُ ﴿الْحُكْمَ﴾ الحِكْمَةَ والفَهْمَ والجِدَّ والعَزْمَ والعِلْمَ والعَمَلَ ﴿صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ وهو: في سِنِّ الصِّبا، فَتَىً.

﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾

﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا﴾ مَحَبَّةً في شَفَقَةٍ ورأفَةً ورحمَةً وهيبةً مِنْ عندنا ﴿وَزَكَاةً﴾ طَهارَةً من الذنوبِ ونقاءً مِن الخبائثِ الحسِّيَّةِ والمَعنويَّةِ ﴿وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾ يأتَمِرُ بأوامرِ اللهِ، ويَجتنِبُ نواهيَهُ.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ البِرُّ: الإحسانُ، وضِدُّه: العقوق، وبِرُّ الوالدَيْنِ: طاعتُهما وَصِلَتُهما والإحسانُ إليهما واللُّطْفُ بِهما.

﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا﴾ متكبّرًا عَنْ طاعة الله، مُتعالِيًا عَن قبولِ الحَقِّ، مُتَرَفِّعًا عَلى النّاسِ ﴿عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ مُمْتَنِعًا عنْ طاعةِ ربِّهِ ووالديه.

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾ تحيَّةٌ مِن اللهِ سبحانه وتعالى لِيحيى، وتتضمَّنُ: السلامةَ والأمانَ مِن اللهِ لهُ في الأحوالِ الثلاثةِ وهي: ﴿يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾

لَمّا ذكرَ تعالى قصةَ زكريّا ويحيى وما فيها مِن العجَبِ مِن ولادةِ يحيى من أبٍ كبيرٍ وأُمٍّ عقيمةٍ، انتقلَ منها إلى ما هو أعجبُ منها وهي: ولادةُ عيسى بلا أبٍ ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ القرآن خَبَرَ: ﴿مَرْيَمَ﴾ بنتِ عِمرانَ مِن سُلالةِ داوُدَ عليهِ السلامُ، وكانَتْ تحتَ كفالَةِ ورِعايَةِ زكريّا عليه السلامُ ﴿إِذِ﴾ حِيْنَ ﴿انْتَبَذَتْ﴾ تَنَحَّتْ وانْفَرَدَتْ وابْتَعَدَتْ واعتَزَلَتْ ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ ودارِها أو مِن بيتِ المَقدِسِ ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ مِن جهةِ المَشْرِقِ.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ ساترًا يستُرُها؛ لِكيلا يروها: حالَ عبادتِها، أو حالَ اغتِسالِها ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا﴾ بَعَثْنا إليها ﴿رُوحَنَا﴾ جبريلَ عليهِ السَّلامُ، وقد وصفَهُ اللهُ بهذا الوصفِ في قولِهِ تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾[الشعراء] ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾[النحل:١٠٢]

﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ في صُورَةِ إنسانٍ مُعتدِلٍ، تامٍّ، سَوِيِّ الخِلْقَةِ؛ لأنّها لا تستطيعُ أنْ تَرى المَلَكَ على صورتِهِ.

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾

فخافت أنَّهُ يُريدُها بسوءٍ فـ: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ﴾ أستجيرُ وأَلْتَجِئُ وألوذُ وأَعْتَصِمُ ﴿بِالرَّحْمَنِ﴾ أَنْ ينالني ﴿مِنْكَ﴾ سوءٌ ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ تخافُ اللهَ.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾

﴿قَالَ﴾ جبريلُ: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ طيّبًا، طاهرًا، نزيهًا، عفيفًا.

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾

﴿قَالَتْ﴾ مريمُ مُتَعَجِّبَةً: ﴿أَنَّى﴾ كيف ومِنْ أَيْنَ ﴿يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ لم يُجامِعْني زوجٌ ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ ولسْتُ زانِيَةً حتّى يكونَ لي ولَدٌ!

﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾

﴿قَالَ﴾ جبريلُ لِمَريَمَ: ﴿كَذَلِكِ﴾ الأمرُ كما ذكرتِ: لم تتزوَّجِي ولم تكوني زانيَةً، ولكنْ ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ﴾ خَلْقُ وَلَدٍ مِنْ غيرِ أَبٍ ﴿عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ سَهْلٌ ويسيرٌ، كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾[آل عمران].

﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ لِيَكونَ الولدُ الموهوبُ مِن غيرِ أَبٍ: علامَةً للناس على قُدْرَةِ اللهِ، كما خلقَ آدمَ بلا أُمٍّ وأبٍ، وكما خلقَ حواءَ بِلا أُمٍّ. ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ لكِ يا مريمُ: بالثناءِ الحسنِ، ولِعيسى: بِالنُّبوَّةِ، ولِمَنْ آمَنَ بِهِ: باتِّباعِهِ وتصديقِهِ، كما قال تعالى في نبيِّنا ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[الأنبياء].

﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ وكان خَلْقُ عيسى قضاءً مِن اللهِ مُقَدَّرًا، محكومًا بهِ، مفروغًا منهُ، مكتوبًا في اللَّوْحِ المَحفوظِ.

فَنَفَخَ جبريلُ في جَيْبِ دِرْعِها فوصلَتْ النَّفخةُ إلى رَحِمِها فَحَمَلَتْ بِعيسى، كما قال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾[الأنبياء] ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾[التحريم:١٢].

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ حَمَلَتْ بِعيسى ﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ قاصِيًا، بعيدًا، نائِيًا عَنْ الناس.

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾

﴿فَأَجَاءَهَا﴾ جاءَ بِها وأَلْجَأَها واضْطَرَّها ﴿الْمَخَاضُ﴾ الطَّلْقُ وهو: تَحرُّكُ الولدِ بِشِدَّةٍ لِلخروجِ مِن بطنِ أُمِّهِ ﴿إِلَى جِذْعِ﴾ ساقِ ﴿النَّخْلَةِ﴾ لِتستنِدَ عليها وقتَ وِلادتِها ﴿قَالَتْ﴾ مريمُ ﴿يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ اليومِ ﴿وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ شيئًا لا يُذْكَر، وشيئًا حقيرًا لا يُؤبَهُ لَه؛ حتى لا يُظَن بي السُّوءُ.

فيه: جوازُ تمنِّي المَوتِ عِنْدَ الفِتْنَةِ، وهو قولُ جماهيرِ أهلِ العلمِ.

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَنَادَاهَا﴾ عيسى، وذلكَ أنَّ الضميرَ يرجعُ إلى أقربِ مذكورٍ، ولأنَّها أشارَتْ إليهِ لِيُكَلِّموه حينما ذهبتْ لِقومِها لِمعرفتِها أنَّه قد تكلَّمَ مِن قبلُ. وقيلَ: جبريلُ، ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ تحتِ قَدَمَيْها، وعَنْ قتادةَ: مِن تحتِ النَّخْلَةِ[1]. ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ جدولَ ماءٍ، ونَهرًا صغيرًا، تشربين منه. وقيلَ: معنى السَّرِيِّ: الرَّفيعُ، السَّيِّدُ، العظِيْمُ، الكريمُ مِن الرِّجالِ، والمُرادُ بِهِ: عيسى عليه السلام.

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ﴾ حرِّكي ﴿بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا﴾ تمرًا غضًّا طريًّا ﴿جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ مَجْنِيًّا، مقطوفًا.

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

﴿فَكُلِي﴾ من الرُّطَبِ ﴿وَاشْرَبِي﴾ من الماء ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ طِيْبِيْ نَفْسًا بمولودِكِ، واطْمَئِنِّي، ولا تحزني ﴿فَإِمَّا﴾ إنْ: شرط، وما: زائدةٌ للتَّوكيدِ ﴿تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ فسألكِ عَنْ المَولودِ ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ﴾ أَوْجَبْتُ عَلَى نَفْسِي ﴿لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ سُكُوتًا، وصَمْتًا عَنْ الكلام ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ أحدًا من الناس، وكانَ الصَّمْتُ مِن عِباداتِهِمْ المَشروعةِ في دِينِ بني إسرائيلَ، وأمّا نَذْرُ السُّكوتِ في شريعتِنا: فمحرَّمٌ، ولا يجوزُ الوفاءُ بِهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ، إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ، فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا: أَبُو إِسْرَائِيلَ، نَذَرَ أَنْ يَقُومَ وَلاَ يَقْعُدَ، وَلاَ يَسْتَظِلَّ، وَلاَ يَتَكَلَّمَ، وَيَصُومَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **(مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ، وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ)**[2].

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾

﴿فَأَتَتْ﴾ جاءَتْ مريمُ ﴿بِهِ﴾ بِعيسى ﴿قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا﴾ مُسْتَنْكِرِيْنَ مُتعجِّبينَ ﴿يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ أمرًا عظيمًا، عجيبًا، مُنكرًا، مُخْتَلَقًا، مُفْتَرًى، يقصدونَ بذلكَ: الزِّنى؛ حيثُ جاءَتْ بِوَلَدٍ وليستْ مُتزوِّجةً.

﴿يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾

---

(١) رواه الطَّبَريُّ في تَفسيرِهِ (١٥/٥٠٢).

(٢) رَواهُ البُخاريُّ في صَحيحِهِ (رقم:٦٧٠٤).

﴿يَاأُخْتَ هَارُونَ﴾ يا شبيهةَ الرَّجُلِ الصّالحِ هارون في العبادةِ والعِفَّةِ، عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ ﷺ قَالَ: لَمَّا قَدِمْتُ نَجْرَانَ سَأَلُونِي، فَقَالُوا: إِنَّكُمْ تَقْرَؤُونَ ﴿يَاأُخْتَ هَارُونَ﴾ وَمُوسَى قَبْلَ عِيسَى بِكَذَا وَكَذَا، فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ سَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: **(إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ)**[1]. وقِيلَ: هارون أخوها مِن النَّسَبِ.

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ زانيًا ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ زانية، فأنتِ مِن بيتٍ طاهرٍ معروفٍ بالصَّلاحِ، فكيف تأتينَ بولَدٍ مِن غيرِ أَبٍ؟

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ ابنها عِيسى ﴿قَالُوا﴾ مُتَعَجِّبينَ ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ﴾ كانَ هُنا: التَّامّةُ، بمعنى: وُجِدَ ﴿فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ المَكان المُهيَّأ المُمَهّد للصَّبي!.

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾

﴿قَالَ﴾ عيسى: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ أقرَّ بعبُودِيَّتِهِ للهِ تعالى، فليس له من الرَّبوبيَّةِ والأُلوهيَّةِ شيءٌ كما يدَّعِي النَّصارى، وقد أَمَرَ عيسى بعبادةِ اللهِ وأقرَّ بعبوديتِهِ في عدةِ آياتٍ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾[آل عمران:٥١] ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾[آل عمران:١١٧] ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾[المائدة:٧٢]

﴿آتَانِيَ﴾ أعطاني ﴿الْكِتَابَ﴾ الإنجيل ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ أَوْحى اللهُ إليهِ بِشرعٍ، والنَّبِيُّ: مُشتقٌ مِن: النَّبَأ، وهو: الخبرُ، فهوَ مُخبِرٌ عَنِ اللهِ عزَّ وجلَّ ما أوحاهُ إليهِ، ومُشتَقٌّ مِن: النُّبُوَّةِ، وهي: الشَّرَفُ، والرِّفْعَةُ.

وعبَّرَ بالماضي عمّا سيقعُ في المُستقبَلِ، تنزيلاً لِتحقُّقِ وقوعِهِ منزلةَ الذي قد وقَعَ فعلاً، كقولِهِ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ..﴾[الزمر:٦٨] ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾[الزمر:٧٣].

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ كثيرَ الخيرِ، وكثيرَ النَّفعِ ومُعَلِّمًا لِلخيرِ ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي﴾ أَمَرَني ﴿بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ أصلُها في اللغةِ: النَّماءُ والطَّهارَةُ، والمرادُ بها: تَطْهيرُ النَّفسِ، وأَداءُ زكاةِ المال ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ مدّةُ دوامِ عُمُرِي، وطِيْلَةُ حياتي.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾

---

(١) رواهُ مُسْلِمٌ في صَحيحِهِ (رقم:٢١٣٥).

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ وجعلني بارًّا بِأُمِّي ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ مُتكَبِّرًا ومترَفِّعًا ومُتعاظِمًا وغليظًا ﴿شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ ولا عاصيًا، خائبًا، عاقًّا.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ﴾ التَّحيَّةُ والسَّلامةُ والأمانُ من الشيطانِ وأعوانِهِ عليَّ، في الثلاثةِ الأحوالِ وهي: ﴿يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ يومَ القيامَةِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **(مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا)**[1].

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿ذَلِكَ﴾ الموصوف بتلك الصفات هو: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ أيْ: ما تقدَّمَ هو القولُ الصحيحُ اليقينُ الصّادِقُ في حقيقةِ عيسى، وقيل المُرادُ بِـ: ﴿الْحَقِّ﴾ اللهُ سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾[الحج:٦] ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ يشكّون ويختلفون.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾

﴿مَا كَانَ﴾ ما ينبغي، ولا يصِحُّ ﴿لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ تَقَدَّسَ عَنْ ذلك وتنزّهَ ﴿إِذَا قَضَى﴾ أرادَ ﴿أَمْرًا فَإِنَّمَا﴾ يكفِيْهِ سُبْحانهُ أَنْ: ﴿يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾[آل عمران] فَمَنْ كانَ كذلك فهو مُنَزَّهٌ عَنْ الولَدِ.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ فأخْلِصوا لهُ العبادَةَ وحدَهُ لا شريكَ لهُ ﴿هَذَا﴾ الذي ذكرتُ لكم: ﴿صِرَاطٌ﴾ طَرِيْقٌ ﴿مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ قويمٌ، مُعتدِلٌ، والمرادُ بهِ: الطَّريقُ المُوصِلُ إلى مَرضاةِ اللهِ وجَنَّتِهِ.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

---

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْه: رَواهُ البُخارِيُّ في صَحيْحِهِ (رقم:٤٥٤٨)، ومُسْلِمٌ في صَحيْحِهِ (رقم:٢٣٦٦).

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ الفِرَقُ والمرادُ بهم: اليهودُ والنّصارى في شأنِ عيسى عليه السلام فصاروا أحزابًا مُتَفَرِّقين ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أيْ: إنَّ الاختلافَ وقعَ بينَ أهلِ الكتابِ أَنْفُسِهِم ولم يخرُجْ عنهُم، فاليهودُ: كفروا به، واتهموا أُمَّهُ بالزِّنا، والنَّصارى: غَلَوا فيهِ، فقال بعضُهم: هو الله، وقال آخرون: هو ابن الله، وقال آخرونَ: ثالثُ ثلاثة، وأمّا المُسلمونَ: فآمنوا بأنَّه عبدُ اللهِ ورسولُهُ.

﴿فَوَيْلٌ﴾ مصدرٌ لا فِعْلَ لهُ مِن لفْظِهِ بمعنى: وعيدٌ ووَبالٌ وشِدَّةُ عذابٍ ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المُخالفينَ والمُنحرفينَ عن الحقِّ والصَّوابِ في شأنِ عيسى ﴿مِنْ مَشْهَدِ﴾ مِنْ شُهودِ يومِ القيامةِ، والمَشْهدُ: الموضِعُ الذي يشهدُهُ الخلائقُ في ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ يوم القيامَةِ العظيمِ بما فيه مِن مشاهدَ وحسابٍ وعقابٍ.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ﴾ صِيغةُ تَعَجُّبٍ بمعنى: ما أشدَّ سمعَهُم! ﴿وَأَبْصِرْ﴾ صِيغةُ تَعَجُّبٍ بمعنى: ما أقوى إبصارَهُم للحقِّ الذي أَقَرُّوا بِهِ بعدَ أَنْ كانوا يُنْكِرونَهُ! ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ يومَ القيامةِ لِلحسابِ والجزاءِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾[السجدة].

﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾ في الحياة الدُّنيا ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ واضِحٌ، بَيِّنٌ، فهُم صمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ عَن الحقِّ.

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَأَنْذِرْهُمْ﴾ خَوِّفْهُم وحَذِّرْهُم ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ يوم الندامة حين يندمُ ويتحسَّرُ المُسيءُ على إساءَتِهِ، والمُحْسِنُ على عدمِ استكثارِهِ مِن الطّاعَةِ ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ طُوِيَتْ صُحُفُ العبادِ، وفُرِغَ مِن الحسابِ، وذُبِحَ المَوتُ، وصارَ كلٌّ إلى ما قدّم ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ غُرورٍ بالدُّنيا، وسَهْوٍ ولَهْوٍ عَنْ الآخرة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ باللهِ ولا بِيَوْمِ القِيامَةِ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، قَالَ: وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، قَالَ فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ، قَالَ:**

ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ) قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الدُّنْيَا(١).

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ عُبِّرَ بضميرِ الجمعِ؛ للتَّعظيمِ، وكُرِّرَ؛ لِلتَّأكيدِ ﴿نَرِثُ الْأَرْضَ﴾ الباقون بعد مَوْتِ الخلائقِ وفنائِها ﴿وَ﴾ نَرِثُ ﴿مَنْ عَلَيْهَا﴾ لِفنائِهِم وبقائِنا بعدَهُم، ومُلْكِنا لهُم، وتصرُّفِنا فيهِم بِما نشاء، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾[الحِجْر] ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾[الرحمن].

﴿وَإِلَيْنَا﴾ وحدَنا ﴿يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ يوم القيامَةِ للحسابِ والجزاءِ، وقُدِّمَ الجارُّ والمَجرورُ لإفادةِ الحصرِ.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾﴾

لَمّا بيَّنَ اللهُ ضلالَ مَن يعبُدُ مخلوقًا عاقلاً كعيسى، ناسبَ بيانُ ضلالِ مَن يعْبُدُ الجماداتِ والأوثانِ

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ القرآنِ المُنَزّلِ عليكَ خَبَرَ وقِصَّةَ: ﴿إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾ **كثيرُ الصِّدْقِ** و**قويُّ التصديقِ بآياتِ اللهِ** و**المُصدِّقُ قولَهُ بِفِعْلِهِ** ﴿نَبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ نَبَّأَهُ اللهُ وأَوْحَى إلَيْهِ.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ آزر ﴿يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ﴾ مِن دونِ اللهِ ﴿مَا﴾ اسمٌ موصولٌ لِغَيْرِ العاقِلِ بمعنى: **الذي**، ويُرادُ بِهِ: الأصنامُ ﴿لَا يَسْمَعُ﴾ دُعاءَكَ إنْ دعوْتَه ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ عبادَتَكَ إنْ عبَدْتَهُ ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْكَ﴾ **لا يكفيكَ** ﴿شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾ فلا يجلبُ لكَ نَفعًا، ولا يكشِفُ عنكَ ضرًّا!

كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾[الشعراء].

﴿يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾

﴿يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾ عَنْ طريقِ الوَحْيِ مِن اللهِ ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ﴾ **أُرْشِدْكَ** و**أدُلُّكَ** ﴿صِرَاطًا﴾ **طريقًا** ﴿سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ **مُستوِيًا**، **مُسْتقيمًا**، **مُعتدِلاً**.

﴿يَاأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾

---

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْه: رَواهُ البُخارِيُّ في صَحيحِهِ (رقم: ٤٧٣٠)، ومُسْلِمٌ في صَحيحِهِ (رقم: ٢٨٤٩).

﴿يَاأَبَتِ لَا تَعْبُدِ﴾ لا تُطِعْ ﴿الشَّيْطَانَ﴾ بعبادةِ الأصنامِ، وكُلُّ مَنْ عَبَدَ غيرَ اللهِ فقدْ عَبَدَ الشيطانَ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾[يس].

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ صيغةُ مُبالغةٍ أي: كثيرَ العِصيانِ، وَأَوَّلُ معاصِيهِ وبِدايةُ انحرافِهِ: تَكَبُّرُه وامتِناعُهُ مِنْ السجودِ لآدم.

﴿يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾

﴿يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ﴾ يُصِيبُكَ ﴿عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ إنْ مُتَّ على كُفْرِكَ ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ قرينًا له في العذابِ بِسببِ مُوالاتِكَ وطاعتِكَ له.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾

﴿قَالَ﴾ آزرُ لإبراهيمَ ﴿أَرَاغِبٌ﴾ أَمُعْرِضٌ ومُنْصَرِفٌ والرَّغْبةُ عَن الشَّيءِ: تَرْكُهُ عمدًا للزُّهدِ فيهِ وعدمِ الحاجَةِ إليهِ ﴿أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي﴾ أصنامي التي أعبدها؟ ﴿يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ﴾ لم تَكُفَّ عَنْ سَبِّ أَصنامي، ودَعوَتِي إلى عِبادَةِ اللهِ ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ لأَرمِيَنَّكَ بالحجارةِ ولأقتُلَنَّكَ ولأَشْتُمَنَّكَ ﴿وَاهْجُرْنِي﴾ فارِقْنِي ﴿مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ دَهْرًا وحِينًا وزمانًا طويلًا، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾: اجْتَنِبْنِي سَالِمًا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكَ مِنِّي عُقُوبَةٌ[1].

﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾

﴿قَالَ﴾ إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ تحيَّةُ توديعٍ ومُتارَكَةٍ وعدَمِ اعتداءٍ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾[الفرقان].

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ سأطْلُبُ لكَ المغفِرَةَ مِن ربِّي والهِدايَةَ ﴿إِنَّهُ﴾ سُبْحانهُ وتَعالى ﴿كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ لَطيفًا، بارًّا، مُعْتَنِيًا بِي، كثيرَ الإحسانِ إِلَيَّ، فَدَعا لهُ كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾﴾[الشُّعراء] وذلكَ قبلَ أنْ يعلمَ أنَّ أباهُ عدُوٌّ للهِ وأنَّهُ سَيَمُوتُ على الكُفرِ: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[التَّوبة:١١٤].

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾

---

(١) رواهُ الطَّبَريُّ في تَفسيرِهِ (١٥/٥٥٤).

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ أتنحَّى عَنْكُم وأَتَجَنَّبُكُم وأُفارِقُكُمْ وأُهاجِرُ ﴿وَ﴾ أُفارِقُ ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ ما تعبُدونَ مِن الأصنامِ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو﴾ دعاءَ العبادةِ بأَنْ: أعبُدَ، ودُعاءَ المَسْأَلَةِ بِأَنْ: أَطْلُبَ وأَسْأَلَ ﴿رَبِّي﴾ وحدَهُ لا شَريكَ لهُ ﴿عَسَى﴾ فِعلٌ ناقِصٌ ناسِخٌ، يدلُّ على: الرَّجاءِ ﴿أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ﴾ بِعبادَةِ وسُؤالِ ﴿رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ خائِبًا، محرومًا مِن قَبُولِ أَعْمالِي الصالحةِ، وإجابةِ دُعائي.

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ﴾ تَرَكَهُم ﴿وَ﴾ تَرَكَ ﴿مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وذَهَبَ إلى الأرضِ المُقَدَّسَةِ عَوَّضْناهُ عَنْ فَقْدِ أهلِهِ بِأَنْ ﴿وَهَبْنَا لَهُ﴾ ابنَهُ: ﴿إِسْحَاقَ﴾ ﴿وَ﴾ حفيدَهُ: ﴿يَعْقُوبَ﴾ وهو المُلقَّبُ بإسرائيل ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ وكُلُّ واحدٍ منهُما جعلناهُ نبيًّا.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ﴾ أَعْطَيْنا هؤلاءِ الثّلاثَةِ ﴿مِنْ رَحْمَتِنَا﴾: النُّبُوَّةَ والكتابَ والعملَ الصالحَ والرِّزْقَ والذُّرِّيَّةَ وغيرها ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ﴾ ثناءً حسنًا وذِكْرًا جميلاً على أَلْسِنَةِ العبادِ ﴿عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ عاليًا، رَفِيْعًا، مُسْتَمِرًّا إلى يومِ القيامةِ.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾﴾

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ القُرْآنِ خَبَرَ: ﴿مُوسَى﴾ بنِ عِمرانَ ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ مُخْتارًا، مُصْطَفًى، خالِصًا مِن الدَّنَسِ، وقرأ نافِعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عَمرو وابنُ عامِرٍ ﴿مُخْلِصًا﴾[1] مِن الإخْلاصِ وهو: أنْ يقصدَ العبدُ بِنِيَّتِهِ وعملِهِ وجهَ اللهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، مِنْ دُنيا أو رياءٍ أو سُمْعَةٍ.

﴿وَكَانَ رَسُولًا﴾ إلى بني إسرائيل والقِبْطِ: بِشَرْعٍ جديدٍ، والرِّسالةُ تقتضي تَبليغَ ما أوحاهُ اللهُ إليهِ؛ فهي بَيْنَهُ وبينَ الخَلْقِ ﴿نَبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ نَبَّأَهُ اللهُ وأَوْحَى إلَيْهِ، والنُّبوَّةُ تقتَضي إيحاءَ اللهِ إليهِ؛ فهي بينَهُ وبينَ الرَّبِّ، والرِّسالةُ أعمُّ مِن النُّبوَّةِ ومُستَلْزِمَةٌ لها.

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾ بِصَوْتٍ يسمعُهُ ﴿مِنْ جَانِبِ﴾: جَبَلِ ﴿الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ الجهةِ اليُمنى بالنسبة لِمَسِيْرِ موسى عليه السلام، حينَ أقبلَ مِن مدينَ مُتوجِّهًا إلى مِصْرَ، وبمعنى: اليُمْنِ والبَرَكَةِ.

---

(١) انظر: السَّبْعة في القراءاتِ لابنِ مُجاهدٍ (ص٣٤٨) والتَّيسير للدّاني (ص١٤٩).

﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ مُناجِيًا، حيث إنَّ اللهَ تعالى كلَّمَهُ ونَاجَاهُ، وموسى كذلكَ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَامُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾[طه] ﴿يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ..﴾[القصص]

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ أَعْطيناهُ ﴿مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ وإنعامِنا عليهِ ﴿أَخَاهُ هَارُونَ﴾ بنَ عِمرانَ وكانَ أكبرَ مِن موسى ﴿نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ استجابةً لِدُعائِهِ وشفَاعَتِهِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾﴾[طه].

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ القُرْآنِ خَبَرَ: ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ بنِ إبراهيمَ ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ يُحقِّقُ وعدَهُ ويُوفِي بِهِ ويُنجِزُهُ، ومَنْ ذلِكَ: أنَّه وفَّى بوعدِهِ لأبِيهِ واستسلَمَ لهُ حينَ أَخبرَهُ بذَبْحِهِ، والوعدُ: إلزامُ الشَّخْصِ نفسَهُ بِعَمَلٍ بدونِ شَرْطٍ أو مِيثاقٍ، والإيفاءُ بالوعدِ مِن صفاتِ المُؤمنينَ، وإخلافُهُ من صفاتِ المنافقين، كما قال ﷺ (**آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**)[1].

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾ زَوْجَه وأولادَهُ وقَوْمَهُ وأُمَّتَهُ ﴿بِالصَّلَاةِ﴾ بإقامَتِها ﴿وَالزَّكَاةِ﴾ بإعطائِها ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ رَضِيَ ربُّهُ عنهُ، ورَضِيَ هُو عَنْ رَبِّه.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ القُرْآنِ خَبَرَ: ﴿إِدْرِيسَ﴾ وهو: جَدُّ أَبِي نُوحٍ ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾

رَفعْنا مَنزلَةَ إدريسَ وذِكْرَهُ بِما أعطيناهُ مِن النُّبوَّةِ، ورفعناه إلى مكانٍ عالٍ في السَّماءِ الرابعةِ، عَنْ أَنَسٍ ﷺ - في حديث المعراجِ- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (**ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ،**

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْه: رَواهُ البُخارِيُّ في صَحيْحِهِ (رقم:٣٣)، ومُسْلِمٌ في صَحيْحِهِ (رقم:٥٩).

قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾)[1].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾

﴿أُولَئِكَ﴾ الأنبياءُ جميعُهُم، وخاصَّةً المذكورون في هذهِ السورة ابتداءً بزكريا وختامًا بإدريس، هم: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ﴾ أَبْناءِ ﴿آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينة ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ﴾ أَبْناءِ ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾ لقبُ: يعقوب بن إسحاق ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ للإيمانِ والعملِ الصّالحِ ﴿وَاجْتَبَيْنَا﴾ اصطفينا واخْتَرْنا لِلنُّبُوَّةِ ﴿إِذَا تُتْلَى﴾ تُقرأُ ﴿عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾﴾ خُضوعًا وخشوعًا وحَمْدًا وشُكرًا للهِ سبحانه وتعالى.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾

لَمّا ذكرَ تعالى مَنْ اصطفاهُم مِن الأنبياءِ والصالحينَ، للاقتداء بهم، ناسبَ ذِكْرُ مَن خَلَفَهُم بسوءٍ للحذَرِ مِن فِعالِهِم ﴿فَخَلَفَ﴾ جاءَ ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ هؤلاء الأنبياء ﴿خَلْفٌ﴾ عَقِبُ سُوءٍ، وأولادٌ طالِحون، وأَتْباعُ ضلالٍ ﴿أَضَاعُوا﴾ تَرَكُوا ﴿الصَّلَاةَ﴾ بالكُلِّيَّةِ، أو تَرَكوا بعضَ شروطِها أو واجِباتِها أو أركانِها ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ ما تَشتهيهِ أنفسُهُم مِن المعاصي كالزِّنَى ونحوِهِ ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ شرًّا وضَلالاً وخيبةً وهلاكًا وعذابًا وخُسرانًا، ويُطْلَقُ على: وادٍ في جهنَّم.

عَنْ الْوَلِيدِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ ﷺ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **(يَكُونُ خَلْفٌ مِنْ بَعْدِ سِتِّينَ سَنَةً: أَضَاعُوا الصَّلَاةَ، وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا، ثُمَّ يَكُونُ خَلْفٌ: يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لَا يَعْدُو تَرَاقِيَهُمْ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةٌ: مُؤْمِنٌ، وَمُنَافِقٌ، وَفَاجِرٌ)** قَالَ بَشِيرٌ: فَقُلْتُ لِلْوَلِيدِ: مَا هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ، فَقَالَ: الْمُنَافِقُ كَافِرٌ بِهِ، وَالْفَاجِرُ يَتَأَكَّلُ بِهِ، وَالْمُؤْمِنُ يُؤْمِنُ بِهِ[2].

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾﴾

---

(١) رواه مُسْلِمٌ في صَحيحِهِ (رقم:١٦٢).

(٢) رواه أحمدُ في مُسْنَدِهِ (رقم:١٣٤٠) وابن حبّان في صَحيحِهِ (رقم:٧٥٥) والطبرانيُّ في المعجمِ الأَوسَطِ (رقم:٩٣٣٠) والحاكمُ في مستدركِهِ (رقم:٣٤١٦).

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ مِن تقصيرِهِ وتفريطِهِ و**التَّوبَةُ**: **الرجوعُ إلى الله تعالى، وتركُ المعصيةِ، والنَّدَمُ على فِعلِها، والعزْمُ على عدمِ العَودَةِ إليها**. ﴿وَآمَنَ﴾ باللهِ ﴿وَعَمِلَ﴾ عملًا ﴿صَالِحًا فَأُولَئِكَ﴾ المُتَّصفونَ بهذه الصفاتِ الثلاثةِ، جزاؤُهم أنَّهم: ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ لا **يُنْقَصونَ** مِن أُجورِ أعمالِهِم ﴿شَيْئًا ﴿٦٠﴾﴾ ولو كان قليلاً.

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ **إقامةٍ واستقرارٍ** وثَباتٍ ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ﴾ أَنْ يَدخلوها ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حيثُ آمنوا باللهِ سبحانه ولم يروهُ، وآمنوا بالجنةِ ولم يروها ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾ يأتِيهِ أولياؤُه، أو: مفعول بمعنى الفاعلِ، أي: **آتٍ وجاءٍ وقادمٌ**، كما قال تعالى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾[الزُّمر].

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ **باطِلاً وفُحْشًا وفضولًا ومعصيةً** ﴿إِلَّا﴾ استثناء مُنقطِعٌ بمعنى: لكنْ يَسمعون: ﴿سَلَامًا﴾ قولاً سالماً مِن كُلِّ عيبٍ، وسلامَ بعضِهم على بعضٍ، وسلامَ الملائكةِ عليهم، كقولِهِ تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾[الواقعة].

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا﴾ يأتيهم ما يشتهون من الطعام: ﴿بُكْرَةً﴾ **صباحًا** ﴿وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ **مساءً**.

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ **نُعْطِي ونُبْقِي فيها** ﴿مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ **مُمْتثلًا لِلأوامِرِ مُجتنِبًا لِلنّواهِي**، في الآيةِ: تشبيهٌ تمثيليٌّ وهو أنَّهُ شُبِّهَ عطاءُ الجنَّةِ بالعطاءِ الذي لا يُرَدُّ وهو الميراثُ.

كما قال تعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾[الأعراف].

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾

سببُ نزولِ الآية: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِجِبْرِيلَ: **(مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا)** فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾[1].

(١) رَواهُ البُخارِيُّ في صَحيحِهِ (رقم: ٤٧٣١).

قُلْ يا جبريلُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ نحنُ المَلائكةُ ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ فلا تستبطئْ نُزولَنا ﴿لَهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ ما نستقبِلُهُ مِن الأزمنَةِ والأَمْكِنَةِ، وما نستقبِلُهُ مِن أمرِ الآخرةِ ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ وما خلّفناهُ مِن أَمْرِ الدُّنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ وما بَيْنَ الدُّنيا والآخرة ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ ناسِيَكَ وتارِكَكَ.

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

﴿رَبُّ﴾ مالكُ وصاحِبُ ومُدبّرُ ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ﴾ اصبِرْ صَبْرًا شديدًا واثْبُتْ ﴿لِعِبَادَتِهِ﴾ على عبادَتِهِ ﴿هَلْ تَعْلَمُ﴾ الاستفهام إنكاريٌّ أيْ: ليسَ ﴿لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ مثيلاً وشبيهًا ونظيرًا: في ذاتِهِ وأسمائِهِ وصِفاتِهِ وأفعالِهِ، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[الشورى].

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ الكافِرُ المُنكِرُ لِلبَعْثِ؛ استِبعادًا واستهزاءً: ﴿أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ﴾ من قبري ﴿حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ حياة ثانية؟

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾ يَتَذَكَّرُ، وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عَمْرو وحمزةُ والكِسائيُّ: ﴿يَذَّكَّرُ﴾[1] أي: يتدبَّرُ ويتفكَّرُ ﴿الْإِنْسَانُ﴾ المُنْكِرُ للبعث ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ﴾ أوْجَدْناهُ الإيجادَ الأوَّلَ ﴿مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾؟ فيَسْتَدِلَّ على أنَّ القادِرَ على إيجادِهِ مِن العدمِ، قادِرٌ على إحيائِهِ بعدَ موتِهِ.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ قَسَمٌ ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ لَنجْمعَنَّهُم إلى المحشر ﴿وَ﴾ واو المعيَّة بمعنى: مَع، ﴿الشَّيَاطِينَ﴾ الذين أضلّوهم ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾ لَنسُوقَنَّهم ﴿حَوْلَ﴾ أبوابِ ﴿جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ باركين على ركبهم.

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾

---

(١) انظر: السَّبْعة في القراءاتِ لابنِ مُجاهدٍ (ص٤١٠) والتَّيسير للدّاني (ص١٤٩).

﴿ثُمَّ لَـنَنْزِعَنَّ﴾ لَـنَجْذِبَنَّ بِشِدَّةٍ وعُنْفٍ ﴿مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ طائِفَةٍ وفِرْقَةٍ وأُمَّةٍ ودِيْنٍ مِنْ طوائِفِ الضَّلالِ ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ تَمَرُّدًا واستِكْبارًا وعِصْيانًا وكُفْرًا، والمرادُ بهم: رُؤساؤهم وقادتُهُم وكُبراؤُهُم.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى﴾ أحقُّ وأجْدَرُ ﴿بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ دُخولاً واحتِراقًا ومقاساةً لِحرِّ النارِ، فنبدَأُ بعذابِهِم.

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾

﴿وَإِنْ﴾ نافية بمعنى: ما ﴿مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ مارٌّ عليها وعابِرٌ فوقها على الصراطِ المضروبِ على متن جهنم، وقيلَ المرادُ بِـ: ﴿وَارِدُهَا﴾: داخِلُها، عَنْ أُمِّ مُبَشِّرٍ رضي الله عنها أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ رضي الله عنها: **(لَا يَدْخُلُ النَّارَ، إِنْ شَاءَ اللهُ، مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ، الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا)** قَالَتْ: بَلَى، يَا رَسُولَ اللهِ فَانْتَهَرَهَا، فَقَالَتْ حَفْصَةُ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **(قَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾)**[1].

وعَنْ السُّدِّيِّ، قَالَ: سَأَلْتُ مُرَّةَ الهَمْدَانِيَّ، عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فَحَدَّثَنِي أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه حَدَّثَهُمْ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(يَرِدُ النَّاسُ النَّارَ ثُمَّ يَصْدُرُونَ مِنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ، فَأَوَّلُهُمْ كَلَمْحِ البَرْقِ، ثُمَّ كَالرِّيحِ، ثُمَّ كَحُضْرِ الفَرَسِ، ثُمَّ كَالرَّاكِبِ فِي رَحْلِهِ، ثُمَّ كَشَدِّ الرَّجُلِ، ثُمَّ كَمَشْيِهِ)**[2].

وعَنْ جابرٍ رضي الله عنه أنَّه: أَهْوَى بِإِصْبَعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ، وَقَالَ: صُمَّتَا، إِنْ لَمْ أَكُنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **(الْوُرُودُ: الدُّخُولُ، لَا يَبْقَى بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ إِلَّا دَخَلَهَا، فَتَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِ بَرْدًا وَسَلَامًا، كَمَا كَانَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، حَتَّى إِنَّ لِلنَّارِ ضَجِيجًا مِنْ بَرْدِهِمْ، ثُمَّ يُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا، وَيَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا)**[3].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ **(يُؤْتَى بِالْجِسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ "، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الجِسْرُ؟ قَالَ: " مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ، وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ، تَكُونُ بِنَجْدٍ، يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا)**[4].

---

(١) رواه مُسْلِمٌ فِي صَحِيْحِهِ (رقم:٢٤٩٦).

(٢) رواهُ الترمذي فِي سُنَنِهِ (رقم:٣١٥٩) وأحمدُ فِي مُسْنَدِهِ (رقم:٤١٢٨) والحاكمُ فِي مُستدركه (رقم:٣٤٢١).

(٣) رواه أحمدُ فِي مُسْنَدِهِ (رقم:١٤٥٢١) والحاكم فِي مستدركه (رقم:٨٧٤٤).

(٤) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ البُخارِيُّ فِي صَحِيْحِهِ (رقم:٧٤٣٩) ومُسْلِمٌ فِي صَحِيْحِهِ (رقم:١٨٣).

﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا﴾ قَضاءً، محتومًا، واجبًا، لازِما، جازِمًا ﴿مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ مُقدَّرًا، مُبْرَمًا، قضاه الله.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾ نُسَلِّمُ ونُخَلِّصُ ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ بامتثال أوامر اللهِ واجتنابِ نواهيه ﴿وَنَذَرُ﴾ نترك ونُبْقِي ﴿الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ باركين على رُكَبِهِمْ، لا يستطيعون الفرار منها.

وفي الآيةِ: افتِنانٌ، حيثُ جُمِعَ فيها بين المُتضادَّيْنِ، فَجُمِعَ بينَ الوعدِ والوعيدِ، والتَّبْشيرِ والتحذيرِ.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ مِنْ القُرآنِ ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحاتٍ ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ﴾ أفضلُ وأحْسَنُ ﴿مَقَامًا﴾ إقامَةً ومَسْكنًا ومَنْزِلاً ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ مجلسًا ومُجْتَمَعًا: فريقُنا أم فريقُكُم؟ والجوابُ: أنَّ أهلَ المعاصي، هم أكثرُ استمتاعًا بالدُّنيا وزينتِها وزُخْرُفِها، ولذا نبَّههم الله تعالى بقولِهِ:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾﴾

﴿وَكَمْ﴾ الخبريَّة للتكثير، بمعنى: ما أكثرَ الأُمَمِ التي ﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ هؤلاءِ الكفّارِ المُفتخرِيْنَ بما هُم فيهِ مِن تَفَوُّقٍ دُنْيويّ ومادِيّ ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ قومٍ وأُمَّةٍ وأهلِ زمنٍ واحدٍ ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا﴾ متاعًا وأموالًا ﴿وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾﴾ مَرْأىً ومنظرًا وصُوَرًا وهيْأَةً وشكلاً؛ لِنفاسَةِ ثيابِهم، وتنعُّم أبدانِهم، فَهَلْ منَعَهُم غِناهُم وزينتُهُم الدُّنيويّةُ عَن إهلاكِ اللهِ إيّاهُم؟ وهل تَتَّعظونَ بهم؟

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾﴾

﴿قُلْ مَنْ كَانَ﴾ يتخبَّطُ ﴿فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ﴾ فسوفَ يَمُدُّ ويُمْهِلُ ويُمْلِي ويَدَعُ ﴿لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ في الدُّنيا ﴿مَدًّا﴾ يستَدْرِجُهُ حتى يزدادَ ضلالًا ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا﴾ عايَنوا: ﴿مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾ المُعَجَّلَ في الدُّنيا، كالقتلِ والأَسْرِ ﴿وَإِمَّا﴾ العذابَ المؤجَّلَ يومَ يرَوْنَ ﴿السَّاعَةَ﴾ أي: يومَ القِيامَةِ ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذٍ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ منزلًا ومَسْكنًا ﴿وَأَضْعَفُ﴾ أَقَلُّ ﴿جُنْدًا ﴿٧٥﴾﴾ أعوانًا وأَنْصارًا، أهو فريقُهم أم فريقُ المؤمنين؟

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

لمّا ذكر تعالى: مُعاقبةَ العُصاةِ بِإمدادِهِم في ضلالِهِم وزيادةِ غيِّهِم، ذَكَرَ مُكافأتَهُ لِلمُهتدينَ بزيادَةِ هُداهُمْ وصلاحِهِم ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ إيمانًا وصلاحًا وطاعَةً وعِلْمًا، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾[محمد] ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾[التوبة].

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ جميعُ الأعمالِ الصّالِحَةِ التي يبقى ثوابُها لِصاحِبِها، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: **(اسْتَكْثِرُوا مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ)** قِيلَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **(الْمِلَّةُ)** قِيلَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **(الْمِلَّةُ)** قِيلَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **(التَّكْبِيرُ، وَالتَّهْلِيلُ، وَالتَّسْبِيحُ، وَالتَّحْمِيدُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ)**(١).

وعن ابنِ عباس ﷺ ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: الصّلواتُ الخَمْسُ(٢).

﴿خَيْرٌ﴾ أفضلُ وأَنْفَعُ ﴿عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ جزاءً وأجرًا ﴿وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ مَرْجِعًا وعاقِبَةً، لصاحِبِها في الآخرةِ ممّا يتفاخَرونَ به على المؤمنينَ مِن زينةِ الحياةِ الدُّنيا.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾

لَمّا ردَّ سبحانهُ وتعالى على مُنكِري البعثِ وفنَّدَ شُبْهَهُم، ذكر قصةً تَدُلُّ على غرورِ ما هم فيه من إنكارِ البعثِ: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ هَلْ رأيتَ! وهل أُخْبِرْكَ! عَنْ ﴿الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ حُجَجِنا ﴿وَقَالَ﴾ مُنكِرًا للبعثِ؛ إنْ مُتُّ وبُعِثْتُ ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ لَأُعطَيَنّ ﴿مَالًا﴾ كثيرًا ﴿وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ قِياسًا مِنهُ للآخرةِ على الدُّنيا.

وسببُ نزولِ الآية: عَنْ خَبَّابِ بنِ الأَرتِّ ﷺ قَالَ: جِئْتُ العَاصَ بْنَ وَائِلٍ السَّهْمِيَّ أَتَقَاضَاهُ حَقًّا لِي عِنْدَهُ، فَقَالَ: لاَ أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، فَقُلْتُ: "لاَ حَتَّى تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ" قَالَ: وَإِنِّي لَمَيِّتٌ ثُمَّ مَبْعُوثٌ؟ قُلْتُ: "نَعَمْ" قَالَ: إِنَّ لِي هُنَاكَ مَالًا وَوَلَدًا فَأَقْضِيكَهُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾(٣).

---

(١) رواه أحمدُ في مُسْنَدِهِ (رقم:١١٧١٣) وابنُ حبّان في صَحيْحِهِ (رقم:٨٤٠) والحاكم في مستدركه (رقم:١٨٨٩).

(٢) رواه الطَّبَريُّ في تَفسيرِهِ (١٥/٢٧٤).

(٣) مُتَّفَقٌ عَلَيْه: رَواهُ البُخارِيُّ في صَحيْحِهِ (رقم:٤٧٣٢) ومُسْلِمٌ في صَحيْحِهِ (رقم:٢٧٩٥).

﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾

﴿أَطَّلَعَ﴾ الهمزةُ لِلاستفهامِ بمعنى: هل، واطَّلَعَ: عَلِمَ ورأى ﴿الْغَيْبَ﴾ فقال ما قال عَنْ عِلْمٍ وَبَيِّنَةٍ؟ ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ﴾ أم أعْطاهُ اللهُ: ﴿عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ مِيثاقًا، لَيُدْخِلَنَّهُ الجنة، ويُعطيه مالًا وأولادًا؟ والمرادُ بالعهدِ: قولُ لا إله إلا اللهُ، والإيمانُ باللهِ، والعملُ الصالح.

﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾

﴿كَلَّا﴾ حرْفُ ردْعٍ وزَجْرٍ لِلمُخاطَبِ على بُطلانِ كلامِهِ ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾: مِن الكذِبِ، وما يعمَلُ: مِن الكُفرِ ﴿وَنَمُدُّ لَهُ﴾ نَزِيدُهُ ونُطَوِّلُ له ونُضاعِفُ له: ﴿مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾؛ لِكُفْرِهِ وافتِرائِهِ على اللهِ سبحانه وتعالى.

﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أيْ: نُمِيتُهُ وَسَيَصِيْرُ إلينا مالُهُ وولدُهُ الذي ادّعى أنَّهُ يُؤتاهُ بعدَ البعثِ ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يَجِيئُنا يومَ القِيامَةِ ﴿فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ مُنْفَرِدًا، وَحِيدًا، قد سُلِبَ مالُهُ وَوَلَدُهُ وجاهُهُ.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾

﴿وَاتَّخَذُوا﴾ المشركون: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾ مِن الأَوْثانِ يعبدونها؛ ﴿لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ ظهيرًا ومُعِيْنًا لِيَنتصروا بهم، ولِتَمنعَهُمْ مِن عذابِ اللهِ.

﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾

﴿كَلَّا﴾ ليس الأمر كما زعموا، فَإِنَّ هؤلاءِ الذينَ عَبَدُوهُم مِن دُونِ اللهِ: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ سيَجْحَدونَ عِبادةَ المُشركينَ لهُم يومَ القيامةِ، ويَتَبَرَّؤُونَ كُلٌّ منهم مِن الآخرِ ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ أعداءً لهُم وأعوانًا عليهم، وعَنْ قتادةَ: قُرَنَاءَ فِي النَّارِ، يَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَتَبَرَّأُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾[الأحقاف]، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[فاطر:١٤].

---

(١) رواه الطبريُّ في تفسير (١٥/٦٢٤).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا﴾ بَعَثْنا وسَلَّطْنا: ﴿الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ تُهَيِّجُهُم تهييجًا وتُحرِّضُهُم تحريضًا وتُزْعِجُهُم إزْعاجًا وتُغْوِيهم إغواءً وتُشْلِيهم إشْلاءً: لِفِعْلِ المعاصي.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾

﴿فَلَا تَعْجَلْ﴾ لا تستعْجِلْ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بِطَلَبِ وقوعِ العذابِ ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ﴾ نُحْصي أعمارَهُم وأنْفاسَهُم ﴿عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ إحصاءً، حتَّى إذا انتهى وقتُ إمهالِهم ولم يَتوبوا، عاقَبْناهُم بما يستحقّون، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾[العنكبوت:٥٣].

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ رُكْبانًا، مُكَرَّمين مُعَزَّزين مِن أرضِ المَحشَرِ إلى الجنَّةِ.

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ مُشاةً عِطاشًا.

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ لا يملكُ المُتَّقونَ لِلكفارِ، ولا الكفارُ لبعضهم: ﴿الشَّفَاعَةَ﴾ وهي: التَّوسُّطُ لِلغيرِ في جلبِ منفعةٍ أو دَفْعِ مضرَّةٍ، فلا يشفعونَ لِأحَدٍ ولا يستحقّونَ أنْ يشفعَ لهُم أحدٌ ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ﴾ في الدُّنيا ﴿عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ وهو: الإيمانُ باللهِ وحدَهُ، عنْ ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما: الْعَهْدُ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَتَبَرَّأُ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ وَلَا يَرْجُو إِلَّا اللَّهَ[1].

وتُسْتَحَقُّ الشَّفاعةُ يوم القيامةِ: بِرِضا اللهِ عن الشافِعِ، ورِضاهُ عنِ المشفوعِ لهُ، وإذْنُ اللهِ بها، قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿٢٦﴾﴾[النَّجْم].

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾

لَمّا قرَّر تعالى في أوائِلِ السورةِ عُبوديَّةَ عيسى وأنَّهُ خُلِقَ من غيرِ أبٍ، بيَّنَ تعالى شناعةَ قولِهم وَبُطلانَهُ في ادِّعاءِ الولدِ له سبحانه وتعالى ﴿وَقَالُوا﴾ اليهودُ والنَّصارى وبعضُ المشركين ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ مُنْكَرًا، عظيمًا، فظيعًا.

﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾

---

(١) رواه الطَّبَريُّ في تفسيرِهِ (١٥/٦٣٣).

﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ تتشقّق وتَتصدَّع ﴿مِنْهُ﴾ مِن هذا القَولِ المُنْكَرِ ﴿وَتَنْشَقُّ﴾ تَتصدَّع وتَنْفَطِرُ ﴿الْأَرْضُ وَتَخِرُّ﴾ تَسْقُطُ ﴿الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ مُنْهَدِمَةً؛ غضبًا للهِ، وإعظامًا وإجلالاً له سبحانه وتعالى.

﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾

﴿أَنْ﴾ لِلتّعليلِ بمعنى: لِأجلِ ﴿دَعَوْا﴾ ادَّعوا وزَعَمُوا ونَسَبوا ﴿لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ سبحانهُ وتعالى.

﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾

﴿وَمَا يَنْبَغِي﴾ ما يستقيمُ وما يصلُحُ وما يَليقُ ﴿لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ لِغِناهُ وتَنَزُّهِهِ عَنْ ذلك، والولدُ مِن جِنسِ الوالدِ، واللهُ لا شبيهَ لَهُ ولا مَثِيْلَ.

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾

﴿إِنْ﴾ نافيةٌ بِمعنى: ما ﴿كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ﴾ يومَ القيامةِ ﴿عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ خاضعًا، ذليلاً، فكيفَ يكونُ أحدٌ منهم ولدًا له؟

﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾

﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ﴾ حَصرَهُم وأحاطَ بهم علمًا ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ وعلِمَ عدَدَهُم مِن بدءِ الخليقةِ إلى قيامِ الساعةِ، فلا يَخْفى عليهِ منهم شيء.

﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ مُنْفَرِدًا، وَحِيدًا، لا ناصرَ لهم ولا مُعينَ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾[الأنعام:٩٤].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ باللهِ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ مَحَبَّةً: بِحُبِّهِ إياهم، وبِتَحبيبِهم إلى عبادِهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **(إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ)**[1].

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾﴾

---

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْه: رَواهُ البُخارِيُّ فِي صَحيْحِهِ (رقم:٦٠٤٠) ومُسْلِمٌ فِي صَحيْحِهِ (رقم:٢٦٣٧).

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ هذا القرآنَ بإنزالِهِ: ﴿بِلِسَانِكَ﴾ العَرَبِيِّ ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ﴾ اللام للتَّعليلِ، أي: لِكَي، تُخبِرُ بِما يسرُّ: ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ بِأنَّ لهمْ العِزَّ في الدُّنيا والجنةَ في الآخرةِ ﴿وَتُنْذِرَ بِهِ﴾ تُحذِّرُ وتُخَوِّفُ وتُخبِرُ بما يسوءُ: ﴿قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾﴾ أشداءُ في الخُصومَةِ، ومُجادِلونَ بِالباطِلِ، وصُمًّا عَنْ الحقِّ، عَنْ ابنِ زيدٍ: الْأَلَدُّ: الظَّلُومُ، وَقَرَأَ قَوْلَ اللَّهِ: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾[البقرة][1].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾

﴿وَكَمْ﴾ ما أكثرَ الأُمَمِ التي ﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ مِن الأُممِ الماضيةِ! ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ تَشْعُرُ وتَجِدُ وترَى وتَعْلَمُ اليومَ: أحدًا مِنْ تِلْكَ الأُمَمِ؟ ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ صوتًا خفيًّا؟ فكما أهلكناهُم، نُهلِكُ هؤلاءِ بِمشيئتِنا.

سُوْرَةُ النُّورِ. وهيَ: مَدَنِيَّةٌ.

﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾

هذهِ ﴿سُورَةٌ﴾ لُغةً: المكانةُ والمنزلةُ العظيمةُ، واصطلاحًا: طائِفَةٌ مُستقِلَّةٌ من آياتِ القرآنِ، لها مَطْلَعٌ ومقطَعٌ، أقلُّها ثلاثُ آياتٍ.

﴿أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ أَوْجَبْنا العملَ بِأحكامِها، وعَنْ مُجاهدٍ: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ الْأَمْرُ بِالْحَلَالِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْحَرَامِ[2]. ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحاتٍ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ لِلتعليلِ بمعنى: لِأجْلِ، وللتَّرَجِّي ﴿تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾ تتَّعظون.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾

﴿الزَّانِيَةُ﴾: البَغِيُّ وَمَنْ تَقْبَلُ وَطْءَ ذَكَرٍ في غيرِ نكاحٍ ولا شُبْهةٍ. ﴿وَالزَّانِي﴾: مَنْ وطِئَ امرأةً في غيرِ نكاحٍ ولا شُبْهةٍ.

فحدُّ الزاني البِكْر: ﴿فَاجْلِدُوا﴾ اضْرِبُوا: ﴿كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ وتَغريبُ عامٍ.

---

(١) رواه الطَّبَريُّ في تَفسيرِهِ (١٥/٦٤٦).

(٢) رواه الطَّبَريُّ في تَفسيرِهِ (١٧/١٣٧).

وأمّا الزانِي المُحْصَنُ فحدُّه: الرَّجْمُ بالحجارةِ حتّى يموت، لحديثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ، وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ، وَالرَّجْمُ)**[1].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ ﷺ قَالاَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ، فَقَامَ خَصْمُهُ فَقَالَ: صَدَقَ، اقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللَّهِ، فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفًا عَلَى هَذَا، فَزَنَى بِامْرَأَتِهِ، فَقَالُوا لِي: عَلَى ابْنِكَ الرَّجْمُ، فَفَدَيْتُ ابْنِي مِنْهُ بِمِئَةٍ مِنَ الغَنَمِ وَوَلِيدَةٍ، ثُمَّ سَأَلْتُ أَهْلَ العِلْمِ، فَقَالُوا: إِنَّمَا عَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ، وَتَغْرِيبُ عَامٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **(لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ، أَمَّا الوَلِيدَةُ وَالغَنَمُ فَرَدٌّ عَلَيْكَ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِئَةٍ، وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا أُنَيْسُ لِرَجُلٍ، فَاغْدُ عَلَى امْرَأَةِ هَذَا، فَارْجُمْهَا)** فَغَدَا عَلَيْهَا أُنَيْسٌ فَرَجَمَهَا[2].

﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ رِقَّةٌ ورحمةٌ بِأَنْ لا يُقامَ عليهما الحدُّ أو يُخَفَّفَ عنهما ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ﴾ لِيَحْضُرْ ويَرَى علانيةً ﴿عَذَابَهُمَا﴾ إقامَةَ الحدِّ عليهما ﴿طَائِفَةٌ﴾ جَماعةٌ ونَفَرٌ ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ لِلتَّشهير بهما، وزجْرًا وردعًا لهما ولغيرهما.

وهذه الآيةُ ناسِخَةٌ لقولِهِ تعالى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝١٥ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۝١٦﴾[النّساء].

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾

لِتَفْظِيعِ الزِّنَى، ولِبيانِ حقارَتِهِ ودناءَتِهِ، ولِزَجْرِ المؤمنينَ عن نِكاحِ الزَّواني، ذَكَرَ سبحانه وتعالى أنَّ: ﴿الزَّانِي﴾ الَّذي اعتادَ الزِّنى ﴿لَا يَنْكِحُ﴾ لا يرغبُ في الزواجِ، ولا يَطَأُ ﴿إِلَّا زَانِيَةً﴾ مثلَهُ ﴿أَوْ مُشْرِكَةً﴾ لا تتوقَّى الزِّنَى مع عَدَمِ جوازِ نِكاحِها ﴿وَالزَّانِيَةُ﴾ التي اعتادَتْ الزِّنى ﴿لَا يَنْكِحُهَا﴾ لا ترغبُ في الزَّواجِ ﴿إِلَّا﴾ مِن ﴿زَانٍ﴾ مِثْلَها ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾ لا يَتوقّاهُ مع حُرْمَةِ زواجِها مِنْهُ ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ﴾ نكاحُ الزّانيةِ وإنكاحُ الزّاني ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ وإنْ عَقَدا بينهما عقدَ النِّكاحِ: فالعقدُ غيرُ صحيحٍ، ما لَمْ يتوبا قبلَهُ.

---

(١) رواه مُسْلِمٌ فِي صَحِيْحِهِ (رقم:١٦٩٠).

(٢) مُتَّفَقٌ عَلَيْه: رَوَاهُ البُخارِيُّ فِي صَحِيْحِهِ (رقم:٢٦٩٥) ومُسْلِمٌ فِي صَحِيْحِهِ (رقم:١٦٩٧).

وسببُ نزولِ الآيةِ: عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ مَرْثَدَ بْنَ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيَّ كَانَ يَحْمِلُ الْأَسَارَى بِمَكَّةَ، وَكَانَ بِمَكَّةَ بَغِيٌّ يُقَالُ لَهَا: عَنَاقُ وَكَانَتْ صَدِيقَتَهُ، قَالَ: جِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْكِحُ عَنَاقَ؟ قَالَ: فَسَكَتَ عَنِّي، فَنَزَلَتْ: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ فَدَعَانِي فَقَرَأَهَا عَلَيَّ وَقَالَ: (**لَا تَنْكِحْهَا**)(١). وفي لفظٍ: فَأَمْسَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ شَيْئًا حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾(٢).

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ يَقْذِفونَ ويشْتُمُونَ بالفاحِشَةِ ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ جَمعُ مُحْصَنَةٍ، وهي: **المَرأة الحُرَّةُ المُسلمةُ العاقِلَةُ العفِيفَةُ**، والمُحصَنِينَ مِن الرجالِ كذلك ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ على صِدْقِ ما رَمَوْهُم بِهِ مِن الفاحِشَةِ، فَيَنْبَغِي على مَنْ قذَفَ ثلاثةُ أمورٍ وهي:

حدُّ القَذْفِ: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ مع ظهرِهِ، إذا طَالبَ به المَقذوفُ.

﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ لأنَّ القَذْفَ مِن كبائرِ الذُّنوبِ، والسَّبْعِ المُوبِقاتِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ**) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: (**الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ**)(٣).

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ إلى الله، والتَّوبةُ تستلزِمُ: النَّدَمَ والعزمَ على عدمِ العَودَةِ إلى مِثْلِهِ، وأَنْ يُكَذِّبَ القاذِفُ نَفْسَهُ ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ القَذْفِ ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالَهُم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ يقبلُ توبَتَهُم ﴿غَفُورٌ﴾ لِمَنْ تاب ﴿رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ بهم، فتُقبلُ شهادتُهُم بعد تَوبَتِهِم على قولِ الجمهورِ خلافًا للحنفيّةِ، ويزولُ عنهُم وصفُ الفِسْقِ بعد تَوبَتِهِم بالإجماعِ.

---

(١) رواه أبو داوُد في سُنَنِهِ (رقم:٢٠٥١) والنسائي في سُنَنِهِ (رقم:٣٢٢٨)

(٢) رواه الترمذيُّ في سُنَنِهِ (رقم:٣١٧٧).

(٣) مُتَّفَقٌ عَلَيْه: رَواهُ البُخارِيُّ في صَحيْحِهِ (رقم:٦٨٥٧) ومُسْلِمٌ في صَحيْحِهِ (رقم:١٤٥).

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾﴾

لَمّا بيَّن تعالى حُكْمَ قَذْفِ الأجنبيَاتِ، بيَّن حُكْمَ قَذْفِ الزَّوجاتِ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ بالزِّنى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ يشهدونَ على صِحَّةِ ما رَمَوْهُنَّ بِهِ، فيُشْرَعُ بينهما: **اللِّعانُ** وهو: **شهاداتٌ مؤكَّداتٌ بأيمانٍ من الزَّوجَيْنِ، مقرونةٌ بلعنٍ من زوجٍ، وغضبٍ من زوجةٍ.**

﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾ وهو الزَّوجُ ﴿أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾﴾ فيما رمى بِهِ زوجَتَهُ مِن الزِّنى.

﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾﴾

﴿وَ﴾ الشهادَةُ ﴿الْخَامِسَةُ﴾ يَزيدُ الدُّعاءَ على نَفْسِهِ بِـ: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾﴾ فيما رَماها بِهِ، ويسقُطُ عنْهُ حدُّ القَذْفِ.

﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾﴾

فَتَسْتَحِقُّ الزَّوْجَةُ بشهاداتِ الزَّوْجِ عَلَيْها: أَنْ تُحَدَّ حَدَّ الزِّنى ﴿وَيَدْرَأُ﴾ **يَدْفَعُ** ﴿عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ **حَدَّ الزِّنَى** ﴿أَنْ تَشْهَدَ﴾ الزَّوجَةُ ﴿أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾﴾ فيما رَماها بِهِ.

﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾﴾

﴿وَ﴾ الشهادَةَ ﴿الْخَامِسَةَ﴾ تَزيدُ الدُّعاءَ على نَفْسِها بِـ: ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾﴾ فيما رَماها بِهِ.

فيسْقُطُ عنها حدُّ الزِّنا، وتَثْبُتُ الفُرْقَةُ بَيْنَهُمَا بِتَحْرِيمٍ مُؤَبَّدٍ، ويَنتَفِي الولدُ إنْ ذُكِرَ في اللِّعانِ.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَلَوْلَا﴾ أداةُ شَرْطٍ، وهي: **حَرْفُ امْتِنَاعٍ لِوُجُودٍ**، أيْ: لِأَنَّهُ وُجِدَ ﴿فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ فإنَّه امتَنَعَ: فَضْحُ الكاذِبِ منهما، ومُعاجَلَتُهُ بالعقوبةِ، وإنزالُ ما دعا بِهِ على نفسِهِ.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ كثيرُ القبولِ لِتوبةِ التائبينَ ﴿حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ فيما شرعَهُ مِن الحدودِ واللِّعانِ.

سببُ نزولِ آياتِ اللِّعانِ: عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ أَنَّ عُوَيْمِرًا، أَتَى عَاصِمَ بْنَ عَدِيٍّ وَكَانَ سَيِّدَ بَنِي عَجْلاَنَ، فَقَالَ: كَيْفَ تَقُولُونَ فِي رَجُلٍ وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا، أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ، أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ؟ سَلْ لِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَأَتَى عَاصِمٌ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَكَرِهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ المَسَائِلَ، فَسَأَلَهُ عُوَيْمِرٌ،

فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَرِهَ المَسَائِلَ وَعَابَهَا، قَالَ عُوَيْمِرٌ: وَاللَّهِ لاَ أَنْتَهِي حَتَّى أَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَجَاءَ عُوَيْمِرٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ رَجُلٌ وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُونَهُ أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ القُرْآنَ فِيكَ وَفِي صَاحِبَتِكَ)** فَأَمَرَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْمُلاَعَنَةِ بِمَا سَمَّى اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَلاَعَنَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ حَبَسْتُهَا فَقَدْ ظَلَمْتُهَا فَطَلَّقَهَا، فَكَانَتْ سُنَّةً لِمَنْ كَانَ بَعْدَهُمَا فِي المُتَلاَعِنَيْنِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(انْظُرُوا فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَسْحَمَ، أَدْعَجَ العَيْنَيْنِ، عَظِيمَ الأَلْيَتَيْنِ، خَدَلَّجَ السَّاقَيْنِ، فَلاَ أَحْسِبُ عُوَيْمِرًا إِلَّا قَدْ صَدَقَ عَلَيْهَا، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أُحَيْمِرَ كَأَنَّهُ وَحَرَةٌ، فَلاَ أَحْسِبُ عُوَيْمِرًا إِلَّا قَدْ كَذَبَ عَلَيْهَا)** فَجَاءَتْ بِهِ عَلَى النَّعْتِ الَّذِي نَعَتَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ تَصْدِيقِ عُوَيْمِرٍ، فَكَانَ بَعْدُ يُنْسَبُ إِلَى أُمِّهِ[1].

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِـالْإِفْكِ﴾ الكَذِبُ الشَّنيعُ والبُهْتَانُ والافْتِراءُ والحديثُ المَقلوبُ، والمُرادُ بِهِ: رَمْيُ عائشة ﵂ بالفاحِشَةِ وهُم قافِلونَ مِن غزوةِ بَنِي المُصْطَلِقِ سنةَ: ستٍّ للهجرةِ ﴿عُصْبَةٌ﴾ جماعةٌ ﴿مِنْكُمْ﴾ تنتسبُ إِلَيكم، مِنهم: المؤمنُ الذي اغترَّ بِما أُشِيْعَ، كحسّانِ بنِ ثابتٍ ومِسْطَحٍ وحَمْنَةَ ﵃ ومنهم: المُنافِقُ.

﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ لا تظنّوا أنَّ ما افتروه: ﴿شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لِما فيه: من الثوابِ، والتَّمحيصِ لِلمؤمنينَ، وتبرئَةِ أُمِّ المؤمنين ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ﴾ لكُلِّ واحدٍ شاركَ في رَميها بالفاحشة جزاءُ: ﴿مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ بِسببِ تَكَلُّمِهِ بالإفك، ما لم يَتُبْ ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ تحمّلَ مُعْظَمَهُ وإِثْمَهُ: ببدئِهِ بِهِ وإشاعَتِهِ، والمقصود بِهِ: عبدُ اللهِ بن أُبَيّ بن سَلُول رَأْسُ المُنافقين ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴿١٢﴾﴾

---

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْه: رَواهُ البُخارِيُّ فِي صَحيْحِهِ (رقم:٤٧٤٥) ومُسْلِمٌ فِي صَحيْحِهِ (رقم:١٤٩٢)، ورُوِيَ أنّ آياتِ اللِّعانِ نزلَتْ في: هلالِ بنِ أُميّةَ في الحديثِ المُتَّفَقِ عَلَيْه: الذي رَواهُ البُخارِيُّ فِي صَحيْحِهِ (رقم:٤٧٤٧) ومُسْلِمٌ فِي صَحيْحِهِ (رقم:١٤٩٧)، قيلَ: إنَّ القصتينِ حَصَلَتَا فِي وَقْتٍ واحِدٍ فنزلَتْ الآيةُ فيهما جميعًا، والراجحُ أنّها نزلت في: عُوَيمِر العجلاني. انظر أوجُهَ ترجيحِ هذا القولِ في: المُحرر في أسباب نزول القرآنِ للمزيني (٢/٧١٩).

﴿لَوْلَا﴾ أداةُ تحضيضٍ بمعنى: هلَّا ﴿إِذْ﴾ حينَ ووقتَ ﴿سَمِعْتُمُوهُ﴾ سمعتُم: هذا الإفْكَ ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ ظنُّوا سلامَةَ مَنْ افتُرِي عليه ذلك مِنْ إخوانِهِم المؤمنين، وقاسوا ذلكَ على أَنفُسِهِم؛ حيثُ إنَّهُم كالنَّفْسِ الواحدَةِ وكالجَسَدِ الواحِدِ ﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ﴾ كَذِبٌ ﴿مُبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ واضِحٌ، ظاهِرٌ.

﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿لَوْلَا﴾ أداةُ تحضيضٍ بمعنى: هلَّا ﴿جَاءُوا﴾ أَتى المُفْتَرون ﴿عَلَيْهِ﴾ على ما ادَّعَوْهُ على أُمِّ المؤمنينَ عائِشةَ ﵂ ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ عُدُولٍ يشهدونَ على صِحَّةِ ما نسبوا إليها ﴿فَإِذْ﴾ فإنْ ﴿لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ في حُكْمِ اللهِ ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾ وإن كانوا مُتيقِّنينَ في أَنفُسِهِم؛ لأنَّه يحرمُ عليهم أن يتكلَّموا به وليس عندَهم أربعةُ شُهداءَ يشهدونَ على ذلكَ.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَلَوْلَا﴾: حَرْفُ امْتِنَاعٍ لِوُجُودٍ ﴿فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أيُّها المؤمنون ﴿وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ إذْ لم يُعاجِلْكُمْ بالعقُوبَةِ، وأمْهَلَكُم للتَّوبةِ، وتابَ على مَن تابَ مِنكم، وجوابُ لولا: ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ لأصابَكُم ﴿فِي﴾ لِلسَّبَبِيَّةِ أي: بسببِ ﴿مَا أَفَضْتُمْ﴾ خُضْتُمْ ﴿فِيهِ﴾ مِن الكذبِ والافتراءِ على أُمِّ المؤمنينَ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾:

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

ثم انتقلَ الكلامُ مِن الغَيبَةِ إلى الخِطابِ على أُسلوبِ الالتفاتِ: ﴿إِذْ﴾ حِيْنَ ﴿تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ تلقَّفونَهُ وتَقْبَلونَهُ وتَسْتَوْشُونَ حديثَهُ، ويرويه بعضكم عَنْ بعض وتَكذِبونَ وتُسرِعُون في الكذِبِ وتستمرُّون فيهِ ﴿وَتَقُولُونَ﴾ تتناقلونَ ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ بِأَلْسِنَتِكُمْ، في هذه الجملةِ: إطنابٌ؛ للدّلالةِ على أنَّ هذا الكلامَ ليسَ إلا قولاً يجري على ألسِنَتِكُم مِنْ غيرِ أنْ يُطابِقَ الواقِعَ أوْ يوافِقَ العِلْمَ اليقينيّ.

﴿مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ ليسَ معكم دليلٌ صحيحٌ على صِحَّةِ قَولِكُم، وكلا الأمرينِ مذمومانِ: التكلُّمُ بالباطِلِ، والقولُ بلا علمٍ.

﴿وَتَحْسَبُونَهُ﴾ تظُنّونه ﴿هَيِّنًا﴾ سهلاً ويسيرًا مِن صغائرِ الذُّنوبِ ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ مِن كبائرِ الذُّنوبِ؛ لِما فيهِ مِن الكَذِبِ والخَوضِ في أَعراضِ الأعِفّاءِ.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَلَوْلَا﴾ أداةُ تحضيضٍ بمعنى: هلَّا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ هذا الإفك ﴿قُلْتُمْ: مَا يَكُونُ لَنَا﴾ ما يَصِحُّ لنا، وما ينبغِي لنا، ولا يُمْكِنُنا: ﴿أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ الأمْرِ الشَّنِيْعِ ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهٌ لِلهِ تَعَجُّبًا مِنْ: ﴿هَذَا﴾ الذي رُمِيَتْ بِهِ أُمُّ المؤمنينَ، فإنَّهُ: ﴿بُهْتَانٌ﴾ افتِراءٌ وكَذِبٌ يَبْهَتُ سامِعَهُ لِفظاعَتِهِ ﴿عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾؛ لأنَّهُ مِن السَّبْعِ المُوبِقاتِ.

﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾

﴿يَعِظُكُمُ﴾ يُوصِيْكُم ويُذكِّركم ويَنصَحُكم ويَنْهاكُم ﴿اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ لِمِثْل هذا الإفْكِ مِن المعاصي والمُنكراتِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾

﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَيُبَيِّنُ﴾ يوضّح ﴿اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ المُشتمِلَةِ على أحكامِهِ ومواعظِهِ؛ لِتعمَلوا وتتَّعِظوا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأفعالِكُمْ، وما فيهِ صلاحُكُمْ ﴿حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ في تدبيرِهِ وتشرِيْعِهِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ﴾ تَنْتَشِرَ وتَفْشُوَ وتَذِيْعَ وتظهرَ ﴿الْفَاحِشَةُ﴾: ما عَظُمَ قُبْحُهُ مِن الأَقوالِ والأَفعالِ، كَالزِّنى والقَذْفِ وغيرِهِما مِنْ المنكراتِ ﴿فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في مُجْتَمَعِهِم ودِيارِهِم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مُؤْلِمٌ، مُوجِعٌ ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بإقامة الحَدِّ عليهم ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بِعذابِ النّارِ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ كذبَهُم، ومآلَهُم، وما يُصْلِحُكُم وما هو خيرٌ لكُم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَلَوْلَا﴾: حَرْفُ امْتِنَاعٍ لِوُجُودٍ ﴿فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أيُّها الواقِعونَ في الإفْكِ ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بكم ﴿وَ﴾ لولا ﴿أَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ﴾ شديدُ الرَّحمةِ ﴿رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ بكم، وجوابُ لولا محذوفٌ تقديرُهُ: لَعاجَلَكُمْ بِالعُقُوبَةِ.

وسببُ نزولِ العشرِ آياتٍ في قصةِ الإفكِ: عَنْ عَائِشَةَ ﵂ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَمَا نَزَلَ الحِجَابُ، فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي، وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ، وَدَنَوْنَا مِنَ المَدِينَةِ قَافِلِينَ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ قَدِ انْقَطَعَ، فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي وَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يَرْحَلُونَ لِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ رَكِبْتُ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا، لَمْ يُثْقِلْهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا تَأْكُلُ العُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ القَوْمُ خِفَّةَ الهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ فَبَعَثُوا الجَمَلَ وَسَارُوا،

فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَمَا اسْتَمَرَّ الجَيْشُ فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا دَاعٍ، وَلاَ مُجِيبٌ فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ المُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الجَيْشِ، فَأَدْلَجَ فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَأَتَانِي فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَوَاللَّهِ مَا كَلَّمَنِي كَلِمَةً وَلاَ سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ، حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ فَوَطِئَ عَلَى يَدَيْهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ، حَتَّى أَتَيْنَا الجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الإِفْكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ ابْنَ سَلُولَ، فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ،

فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ، لاَ أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي، أَنِّي لاَ أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ: **(كَيْفَ تِيكُمْ؟)** ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَاكَ الَّذِي يَرِيبُنِي وَلاَ أَشْعُرُ بِالشَّرِّ حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَمَا نَقَهْتُ، فَخَرَجَتْ مَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَنَاصِعِ وَهُوَ مُتَبَرَّزُنَا، وَكُنَّا لاَ نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ العَرَبِ الأُوَلِ فِي التَّبَرُّزِ قِبَلَ الغَائِطِ، فَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي، وَقَدْ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟ قَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قَالَتْ: قُلْتُ: وَمَا قَالَ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي، وَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَعْنِي سَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: **(كَيْفَ تِيكُمْ؟)** فَقُلْتُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ، قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، قَالَتْ: فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَجِئْتُ

أَبَوَيَّ فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهْ مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ قَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَيْكِ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ سُبْحَانَ اللَّهِ، أَوَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟ قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، حَتَّى أَصْبَحْتُ أَبْكِي،

فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رضي الله عنهما حِينَ اسْتَلْبَثَ الوَحْيُ، يَسْتَأْمِرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ: فَأَمَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ مِنَ الوُدِّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَهْلَكَ وَلاَ نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَإِنْ تَسْأَلِ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ، فَقَالَ: **(أَيْ بَرِيرَةُ، هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ؟)** قَالَتْ بَرِيرَةُ: لاَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، إِنْ رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا، أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ،

فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَعْذَرَ يَوْمَئِذٍ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ: **(يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي)** فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَعْذِرُكَ مِنْهُ، إِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ، قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الخَزْرَجِ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ، فَقَالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لاَ تَقْتُلُهُ، وَلاَ تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ المُنَافِقِينَ، فَتَثَاوَرَ الحَيَّانِ الأَوْسُ وَالخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى المِنْبَرِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا، وَسَكَتَ،

قَالَتْ: فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، قَالَتْ: فَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا لاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، وَلاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، يَظُنَّانِ أَنَّ البُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، قَالَتْ: فَبَيْنَمَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي، وَأَنَا أَبْكِي فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَأَذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ، دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لاَ يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: **(أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ إِلَى اللَّهِ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ)** قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا قَالَ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: فَقُلْتُ

وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لاَ أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ القُرْآنِ: إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الحَدِيثَ، حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ فَلَئِنْ، قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي بَرِيئَةٌ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لاَ تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، وَاللَّهِ مَا أَجِدُ لَكُمْ مَثَلًا إِلَّا قَوْلَ أَبِي يُوسُفَ، قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الـمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف: ١٨] قَالَتْ: ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى، وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بِهَا، قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلاَ خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الجُمَانِ مِنَ العَرَقِ، وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، مِنْ ثِقَلِ القَوْلِ الَّذِي يُنْزَلُ عَلَيْهِ، قَالَتْ: فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سُرِّيَ عَنْهُ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا: **(يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ بَرَّأَكِ)** فَقَالَتْ أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: لاَ وَاللَّهِ لاَ أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلاَ أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسِبُوهُ﴾ العَشْرَ الآيَاتِ كُلَّهَا(١).

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

لَـمّا نهى تعالى عن رَمي العفيفاتِ بالفاحشةِ خصوصًا، ناسبَ النَّهيُ عن الذُّنوبِ عمومًا: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ﴾ طُرُقَ وسُبُلَ ومسالِكَ ومذاهِبَ ونَزَغاتِ ووَساوِسَ ﴿الشَّيْطَانِ﴾ في تزيينه للشّهواتِ والشُّبهاتِ ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ جمعُ فاحشة وهي: ما عَظُمَ قُبْحُهُ مِن الأَقوالِ والأَفعالِ ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾: كُلُّ ما يُنْكِرُهُ الشَّرْعُ ويَنْهى عنْهُ ويَذُمُّه، وكُلُّ ما تستَنْكِرُهُ العقولُ والفِطَرُ السَّليْمَةُ.

﴿وَلَوْلَا﴾: حَرْفُ امْتِنَاعٍ لِوُجُودٍ ﴿فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ وجوابُ لولا: ﴿مَا زَكَى﴾ طَهُرَ وصَلَحَ ﴿مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ بالتوبةِ إنْ تاب ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي﴾ يُطَهِّر ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ بالتَّوفيقِ لِتَوْبَتِهِ وقَبولِها ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالِكُم ﴿عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ بأعمالِكُم، ومَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْكُمُ الْهُدَى وَالضَّلَالَ.

---

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْه: رَوَاهُ البُخارِيُّ فِي صَحِيْحِهِ (رقم: ٤٧٥٠) ومُسْلِمٌ فِي صَحِيْحِهِ (رقم: ٢٧٧٠).

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: كَانَ يَقُولُ: (**اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**)[1].

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ لا يَحْلِفْ ولا يُقَصِّر ﴿أُولُو﴾ أهل ﴿الْفَضْلِ﴾ الطَّوْلِ والصَّدَقَةِ والإحسانِ ﴿مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ الغِنَى والجِدَةِ ﴿أَنْ﴾ أي: ألّا، أو كراهةَ أَنْ ﴿يُؤْتُوا﴾ يُعْطُوا: ﴿أُولِي الْقُرْبَى﴾ أقرباءَهُم المُحتاجِينَ ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ الذين لا يَمْلِكُونَ مِن المالِ ما يَسُدُّ حاجَتَهُم، ويشملُ: الفُقَراءَ؛ لأنَّ هذينِ اللفظينِ إذا اجتَمعا افتَرَقا وإذا افتَرَقا اجْتَمَعا ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذينَ خرجوا مِن ديارِ الكُفْرِ إلى دِيارِ الإسلامِ، فلا يتْرُكوا إعانَتَهُم؛ لِأجلِ ذنبٍ ارتَكبُوه.

﴿وَلْيَعْفُوا﴾ لِيَتجاوزوا عَن ذُنوبِهِم، فالعَفْوُ: التجاوزُ عَنِ الذَّنبِ، وَعَدمُ مُعاقَبةِ المُذنِبِ والانتقامِ منهُ.

﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾ لِيُعرِضوا عَن لَومِهِم، والصَّفْحُ: مِثْلُ العفوِ وزيادَةٌ: تَرْكِ لومِ المُذنِبِ وعِتابِهِ، فالصَّفْحُ: أعمُّ وأبْلَغُ مِن العَفْوِ ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ذنوبَكُم بِسَبَبِ عَفوِكُم وصَفْحِكُمْ؟ والاستفهامُ إنكاريٌّ؛ للتَّحضيضِ على السعيِ فيما فيهِ المغفرةُ والرِّضوانُ.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لِمَن عَفَى وصَفَحَ لِوَجْهِ اللهِ، والجزاءُ مِن جِنْسِ العملِ ﴿رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ بهم، فَلْيَقْتَدِ بِهِ عبادُهُ، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾[النساء] ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾[التغابن]

وسببُ نزولِ الآيةِ: في آخرِ حديثِ عَائِشَةَ ﵂ في قصَّةِ الإفْكِ، قالت: فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ: وَاللَّهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي القُرْبَى وَالمَسَاكِينَ وَالمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا، أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لاَ أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا[2].

---

(١) رواه مُسْلِمٌ في صَحيحِهِ (رقم:٢٧٢٢).

(٢) مُتَّفَقٌ عَلَيْه: رَواهُ البُخارِيُّ في صَحيحِهِ (رقم:٤٧٥٠) ومُسْلِمٌ في صَحيحِهِ (رقم:٢٧٧٠).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ يقذِفُونَ بالفاحشةِ ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ العفائف ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ عَنْ الفاحشة التي لا تَخْطُرُ بِبالِهِنَّ وَلا يَفْطَنَّ لها ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ باللهِ ورسولِهِ ﴿لُعِنُوا﴾ طُرِدوا مِن رَحْمةِ اللهِ ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لأنَّ القذْفَ مِن السَّبْعِ الموبِقاتِ.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ يومَ القِيامَةِ:

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ بما نطقوا بِهِ مِن الباطلِ ﴿وَ﴾ تشهَدُ عليهم ﴿أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ: بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴿٦٥﴾﴾[يس] وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ، فَقَالَ: **(هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟)** قَالَ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: **(مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ)**[1].

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يومَ القيامةِ ﴿يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ﴾ يُعطيهم، وَالتَّوْفِيَةُ: بَذْلُ الشَّيْءِ وَافِيًا مِنْ غَيْرِ نَقْصٍ ﴿دِينَهُمُ﴾ جزاءَهم وحِسابَهُم ﴿الْحَقَّ﴾ الثابتَ لهم، والواجبَ عليهم، بالعَدْلِ وبالقِسْطِ.

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ: الْحَقُّ﴾ اسمٌ للهِ وصِفَةٌ مِن صفاتِهِ، فهو: المَوجُودُ المُوْجِدُ وكُلُّ مَنْ عداهُ فانٍ وزائلٌ، وهو: الحَقُّ في ذاتِهِ وصِفاتِهِ وهو: الحَقُّ المُستحِقُّ للعبادةِ وما عُبِدَ مِن دُونِهِ باطلٌ، وهو: الحَقُّ في أمرِهِ ونهيِهِ، ووعدِهِ ووعيدِهِ، وتشريعِهِ وتدبيرِهِ.

﴿الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ اسمٌ للهِ وصِفَةٌ مِن صفاتِهِ، فهو: البَيِّنُ الواضِحُ الظاهِرُ في رُبُوبيَّتِهِ وأُلوهيَّتِهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ، وهو: الذي يُبيِّنُ الحقَّ ويُظهِرُهُ للنّاسِ بالأدلةِ الكونيَّةِ والشَّرعيَّةِ، والمُظْهِرُ للحقائقِ في الآخرَةِ.

---

(١) رواه مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (رقم:٢٩٦٩).

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿الْخَبِيثَاتُ﴾ الخبيثُ: **الرديءُ المَكْروهُ الفاسدُ الخسيسُ مِن الأشياءِ الحسِّيَّةِ والمَعنويّةِ**، وهو ضِدُّ الطَّيِّبِ، فالخبيثاتُ مِن النِّساءِ: مُناسِباتٌ وموافقاتٌ ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ أمْثالَهُنَّ ﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾ مِن الرِّجالِ: ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾ وكُلُّ خبيثٍ مِن الأقوالِ والأفعالِ: مناسِبٌ ومُوافِقٌ لِما هو خبيثٌ مِثْلُهُ.

﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ وكُلُّ طيّبٍ مِنْ ذلك: مُناسِبٌ ومُوافِقٌ لِما هو طيّبٌ، فَلِذا كانَتْ الطيبةُ الطاهرةُ عائشةُ ﵂ زوجةَ النبيِّ الطّاهرِ المَعصومِ ﷺ ﴿أُولَئِكَ﴾ الطيّبون والطَّيّباتُ، والمرادُ بهم: عائشةُ وصفوانُ ﵄ ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ مِمّا يتَّهمهم بهِ الخبيثونُ والخبيثاتُ ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لِذنوبِهم بِصلاحِهم وبصبرِهِم على الأذى ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ وهو: الجنّة.

وأجْمعَ العلماءُ على أنَّ مَنْ سبَّ عائشةَ ﵂ أنَّهُ: كافرٌ؛ لأنه مُعانِدٌ للقُرآنِ مُكَذِّبٌ بِهِ.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

لَمّا كان الاطلاع على العوراتِ سببًا لإثارةِ الشهوةِ المؤدي إلى ارتكابِ الفاحِشَةِ، أمر الله بالاستئذان على البيوت؛ حماية للنظر من الاطلاع على العوراتِ، فقالَ تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ **تستأذِنوا** و**تَسْتَعْلِموا**، وسُمّي الاستئذانُ استئناسًا؛ لأنَّه يحصُلُ بهِ الاستئناسُ وبعدمِهِ تحصلُ الوَحْشَةُ، فيستأذِنُ ثلاثَ مراتٍ، ويطرُقُ البابَ طَرْقًا خفيفًا، ولا يقِفُ تِلقاءَ البابِ بوجْهِهِ، ويُخْبِرُ باسمِهِ إذا سُئِلَ.

﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ بِقولِ: السلام عليكم أأَدْخُلُ؟ عَنْ رِبْعِيٍّ عَن رَجُلٍ مَنْ بَنِي عَامِرٍ أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ فِي بَيْتٍ فَقَالَ: أَلِجُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِخَادِمِهِ: **(اخْرُجْ إِلَى هَذَا فَعَلِّمْهُ الِاسْتِئْذَانَ، فَقُلْ لَهُ: قُلِ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَأَدْخُلُ؟)** فَسَمِعَهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَأَدْخُلُ؟ فَأَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَدَخَلَ[1].

﴿ذَلِكُمْ﴾ الاستئذانُ الذي أُمِرْتُم بِهِ ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ مِن الدُّخولِ فجأةً وبغتَةً؛ لأنَّ فيهِ الوِقايَةُ مِن النظرِ للعوراتِ والوقوعِ في الإثْمِ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ لِلتّعليلِ بمعنى: لِأجْلِ، وللتَّرجّي ﴿تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ **تتذكّرون** و**تتَّعظون** بِما أُمِرْتُم بِهِ فَتَمْتَثِلوه.

---

(١) رواه أبو داوُد في سُنَنِهِ (رقم:٥١٧٧) وأحمدُ في مُسْنَدِهِ (رقم:٢٣١٢٦).

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ في دخولِها مِمَّنْ يَملِكُ الإذْنَ ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ﴾ أربابُها وأهلُها: ﴿ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ وأنتُم راضونَ ﴿هُوَ﴾ أيْ: الرُّجوعُ ﴿أَزْكَى﴾ أطْهَرُ وأَصْلَحُ وأَطْيَبُ وأَفْضَلُ ﴿لَكُمْ﴾ عندَ اللهِ مِن: الإصرارِ على الدُّخولِ أو القعودِ على البابِ؛ لِما في الرجوعِ من: حُسنِ الخُلُقِ والبُعْدِ عن الرِّيْبةِ والدَّناءةِ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ لا يَخْفى عليه شيءٌ مِن أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ حَرَجٌ وإثْمٌ ﴿أَنْ تَدْخُلُوا﴾ دونَ استئذانٍ ﴿بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ المباني العامَّةُ التي لا تَختصُّ بأحدٍ، المُعَدَّةُ للانتفاعِ العام، كالمكتباتِ والحوانيتِ في الأسواقِ، والأوقافِ المُسبَّلَةِ، والمرافِقِ العامّةِ، والبيوتِ الخَرِبَةِ ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾ منفعَةٌ، مِثْلُ: السِّلَعِ المَعروضَةِ لِلبيعِ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ تُظهِرون مِن أعمالِكُم وأحوالِكُم ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ تُخْفون وتُسِرُّون، لا يخفى عليه شيءٌ مِن ذلِك، فلِذلِكَ شَرَعَ لكُمْ ما يُصلحُ شُؤونَكُم وما تَصْفُو بِهِ سرائِرُكُم كالاستئذانِ ونحوِهِ.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾

لَمّا كانَ الاستئذانُ مِن أجْلِ البَصَرِ، وحيثُ إنَّ النَّظَرَ بريدُ الزِّنا، أمر اللهُ بغضِّ البصرِ، فقالَ تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا﴾ يَكُفّوا ويَحْبِسوا ويَخفِضوا ويُنْقِصوا ﴿مِنْ﴾ للتَّبعيضِ؛ وذلِكَ أنَّهُ عُفِي عن النظْرَةِ الأُولَى التي تقعُ مِن غيرِ قصدٍ، وعُفِيَ عَن نَظَرِ: الشّاهدِ والخاطِبِ ﴿أَبْصَارِهِمْ﴾ عَنْ النَّظَرِ إلى ما لا يَحِلُّ لهم مِن: النِّساءِ والعَوراتِ وزِينَةِ الدُّنيا الفاتِنَةِ ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ مِنْ كشفِها، ومِن الوقوعِ في الحرامِ ﴿ذَلِكَ﴾ الكفُّ عَنْ النَّظرِ إلى ما حرَّمَهُ اللهُ: ﴿أَزْكَى﴾ أطْهَرُ وأَصْلَحُ وأَطْيَبُ وأَفْضَلُ ﴿لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ لا يخفى عليه شيءٌ، وفي هذه الجملةِ ترغيبٌ في حِفْظِ البصرِ والفَرْجِ، ووعيدٌ لِمَنْ لم يغُضَّ بصرَهُ أو لم يحفظْ فَرْجَهُ.

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ﴾ يَكْفُفْنَ ويَحْبِسْن ويَخفِضْنَ ويُنْقِصْنَ ﴿مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ لِما لا يحلُّ لهنَّ النظرُ إليهِ مِن العوراتِ والنَّظَرِ إلى الرِّجالِ بِشهوةٍ ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ بالتَّستُّرِ وبالبُعْدِ عَنْ الفاحشَةِ ﴿وَلَا يُبْدِينَ﴾ لا يُظْهِرن:

﴿زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ للأصنافِ التاليةِ:

فالأجانِبُ يرونَ: ما ظَهَرَ من جمالِ قَوَامِ جسدِها وعينيْها ما لا تستطيعُ إخفاءَهُ إذا لَبِسَتْ الحجاب.

وأمّا الرِّجالُ المَحارِمُ والنّساءُ يرونَ: ما ظَهَرَ مِن زِينتِها -إذا ألْقَتْ جِلْبابها أيْ: عباءَتَها- فيرونَ وجْهَها ورَقَبَتَها ويدَيْها وقدَمَيها، وَيَرَوْنَ: ما تتزيَّنُ به المرأةُ خارجًا عن جَسَدِها، كالثّيابِ الظاهِرَةِ على ألّا تَصِفَ ولا تَشِفَّ، والحُلِيّ والكُحْلِ.

وأمّا الأزواجُ فيُبْدِينَ لهُم ما خَفِيَ مِن زينتِهِنَّ، بَلْ يُشرَعُ لَهُنَّ أَنْ يتَزَيَّنَّ لَهُمْ مُطْلَقًا.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾ جمع خمارٍ وهو: ما تُغَطِّي المَرأَةُ بِهِ رأْسَها ﴿عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ جَمع جَيْبٍ وهو: الفَتْحَةُ التي يدخُلُ معها الرأْسُ في أعلى الثوبِ؛ وذلِكَ ليَسْتُرْنَ شُعورهُنَّ ووجُوهَهُنَّ وأعناقَهُنَّ وصُدُورَهُنَّ.

عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: يَرْحَمُ اللَّهُ نِسَاءَ المُهَاجِرَاتِ الأُوَلَ، لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ شَقَّقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا[1].

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الظاهِرَةَ التي في أصلِ خِلقَتِها، وما تتَزَيَّنُ به خارجًا عن أَصْلِ خِلْقَتِها ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أزواجهنّ ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ اللّاتي يُخالِطْنَهُنَّ المَأْموناتِ، مُسلماتٍ كُنَّ أَوْ كافراتٍ ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ مِن العبيدِ والإماءِ والرقيقِ، والرِّقُّ: عَجْزٌ حُكْمِيٌّ يقومُ بالإنسانِ سببُهُ

(١) رَواهُ البُخارِيُّ في صَحيحِهِ (رقم:٤٧٥٨).

الكُفْرُ. ﴿أَوِ التَّابِعِينَ﴾ الذين يَتْبعونَكُم ويتعلَّقونَ بِكُم لأجْلِ الطعامِ ونحوِهِ ﴿غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ﴾ الحاجةِ والشّهوةِ في النساء ﴿مِنَ الرِّجَالِ﴾ كالمعتُوهِ والعِنّين والمُخنَّثِ وهو: الذَّكَرُ الذي يُشبِهُ النِّساءَ حقيقةً أو تطبُّعًا، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ مُخَنَّثٌ فَكَانُوا يَعُدُّونَهُ مِنْ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ، قَالَ فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا وَهُوَ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ، وَهُوَ يَنْعَتُ امْرَأَةً، قَالَ: إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلَتْ بِأَرْبَعٍ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ أَدْبَرَتْ بِثَمَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **(أَلَا أَرَى هَذَا يَعْرِفُ مَا هَاهُنَا لَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُنَّ)** قَالَتْ: فَحَجَبُوهُ[1].

﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا﴾ لم يطّلِعوا ﴿عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ ولم يعرِفُوا مفاتِنَهُنَّ؛ لِصِغَرِهِم وعدمِ تمييزِهم.

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ﴾ اللام لِلعاقِبَةِ وللتَّعليلِ، لِيظْهَرَ صوتُ ﴿مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ ما يسترن مِنْ خَلْخالٍ ونحوِهِ ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ مِمّا يحصُلُ لكُمْ مِن النَّظَرِ وغيرِه ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ لِلتّعليلِ بمعنى: لِأجْلِ، وللتَّرجِّي ﴿تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ تفوزون بالمطلوبِ مِن رِضَى اللهِ ونعيمِهِ المُقيم، وتنجون من المرهوبِ.

﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾

لَمّا كانت العُنوسَةُ سببًا مِن أسبابِ انتشارِ الزِّنَى، أمرَ اللهُ بإعانَةِ الأيامى على النِّكَاحِ، فقالَ تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا﴾ زوّجوا، والنِّكاحُ: عَقْدٌ يَحِلُّ بِهِ استِمتاعُ كُلٍّ مِن الزَّوْجَيْنِ بِالآخَرِ، وحُكْمُه: سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ، وقدْ تنطبِقُ عليهِ جميعُ الأحكامِ الشرعيَّةِ مِن: الوجوبِ أو الإباحةِ أو الكراهةِ أو التحريمِ، بحسبِ اختلافِ حالِ الشَّخْصِ.

﴿الْأَيَامَى مِنْكُمْ﴾ الرِّجالُ الذينَ لا زوجاتَ لَهُم، والحرائِرُ اللّاتِي لا أَزْواجَ لَهُنَّ.

﴿وَ﴾ زَوِّجُوا ﴿الصَّالِحِينَ﴾ صلاحُ الدِّينِ، وصلاحُ الدُّنيا بأَنْ يكونَ: صالحًا للتَّزوُّجِ قادرًا على القيامِ بحقوقِ الزَّوجيَّةِ ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ مَملوكاتِكُم ﴿إِنْ﴾ حرف شرط ﴿يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾: مَنْ لا يَمْلِكُ مِن المالِ ما يَسُدُّ حاجَتَهُ، وجوابُ الشَّرْطِ: ﴿يُغْنِهِمُ﴾ يُوسِّعْ عليهم ﴿اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ واسعُ الرِّزْقِ، كثيرُ الخيرِ، لا يُنْقِصُ رزقَهُ إغناءُ أحدٍ ﴿عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ بأحوالِ عبادِهِ، وبِمَن يستحِقُّ فضلَهُ الدِّينيّ والدُّنيويّ.

---

(١) رواه مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (رقم: ٢١٨١).

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

لَمّا أمرَ اللهُ المؤمنينَ بِتزْويجِ الأيامى، أَمَرَ الأَيِّم أَنْ يَستعِفّ إذا لم يستطِعْ الزّواجَ، فقالَ تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ لِيَطْلُبْ العِفَّةَ، ولْيصْبِرْ عَنْ الزِّنى ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾ لا يقدرونَ ولا يَستطيعونَ ﴿نِكَاحًا﴾ لِفَقْرِهِمْ أو عَجْزِهِمْ، في هذه الجملةِ: إيجازٌ بالحذْفِ، أيْ: لا يجدونَ قُدْرَةً على النِّكاحِ.

﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الواسِعِ.

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾ يَطْلُبونَ ﴿الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ المُكاتبةُ: عَقْدٌ بينَ الرَّقيقِ ومالِكِهِ على مالٍ يُؤدِّيْهِ الرَّقِيقُ لِمالِكِهِ مُنَجَّمًا، فإذا أدّاها فَهو حُرٌّ ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ الأَمْرُ: لِلاستِحبابِ عند جمهورِ الفقهاءِ، ولِلوجوبِ عندَ الظّاهريَّةِ. ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ القدرةُ على الأَداءِ، والصَّلاحُ في الدِّينِ، والأَمانَةُ والصِّدْقُ ﴿وَآتُوهُمْ﴾ اعْطُوهُمْ وأَعِينوهُمْ، والأمرُ للوجوبِ عندَ: الحنابلةِ والشافعيّةِ، وللاستحبابِ عندَ: المالكيَّةِ والأحنافِ ﴿مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ والخِطابُ للسّادَةِ بِأَنْ: يَحُطّوا عنْهُم جُزءًا ممّا كاتَبُوهم على دَفْعِهِ، ولِغيرِ السّادَةِ بأَنْ: يُعطُوهم مِن الزَّكاةِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **(ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ: الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الْأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ)**[1].

﴿وَلَا تُكْرِهُوا﴾ لا تُجْبروا ﴿فَتَيَاتِكُمْ﴾ إماءَكُم ﴿عَلَى الْبِغَاءِ﴾ على الزِّنى بحثًا عَنْ المال ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ تَعَفُّفًا؛ لأنَّ غيرَ العفيفةِ ترغبُ عن الزِّنى بِدونِ إِكْراهٍ، فَهَذَا الشَّرطُ خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ، فَلَا مَفْهُومَ لَهُ. ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ لِتطْلُبوا ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ما تَكْسِبُهُ من المالِ بِفَرْجِها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ كَسْبِ الإِمَاءِ[2].

وسببُ نزولِ الآيةِ: عَنْ جَابِرٍ ﷺ: أَنَّ جَارِيَةً لِعَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ يُقَالُ لَهَا: مُسَيْكَةُ، وَأُخْرَى يُقَالُ لَهَا: أُمَيْمَةُ، فَكَانَ يُكْرِهُهُمَا عَلَى الزِّنَا، فَشَكَتَا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

---

(١) رواه الترمذيُّ في سُنَنِهِ (رقم:١٦٥٥) والنسائيُّ في سُنَنِهِ (رقم:٣٢١٨) وأحمدُ في مُسْنَدِهِ (رقم:٧٤١٦).

(٢) رَواهُ البُخاريُّ في صَحيحِهِ (رقم:٢٢٨٣).

﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ﴾ يُجْبِرْهُنّ منكُمْ على ذلِكَ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ﴾ لِذَنْبِهِنّ ﴿رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ بِهِنَّ؛ لأنهنّ مُكرَهاتٍ، والإثْمُ على المُكْرِهِ.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ أيُّها الناس ﴿آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ واضحاتٍ، مُفَسِّراتٍ ﴿وَ﴾ أنزلنا إليكم ﴿مَثَلًا﴾ خبرًا عجيبًا، يُشبِهُ قصَّةَ الإفْكِ ﴿مِنَ﴾ أخبارِ ﴿الَّذِينَ خَلَوْا﴾ مَضَوا ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من المؤمنين: كيوسُفَ ومريَمَ، والكافرينَ: كَقَومِ لُوطٍ. ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ زَاجِرًا عَنِ ارْتِكَابِ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ بامتثالِ أوامرِهِ واجتنابِ نواهِيْهِ.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ النُّورُ: اسمٌ للهِ وصفةٌ مِن صفاتِهِ، والنُّورُ في اللُّغةِ: الضِّياءُ، فاللهُ نُورٌ بِذاتِهِ ووجْهُهُ نورٌ وحِجابُهُ النُّورُ، وهو سُبْحانَهُ: مُنَوِّرُ ومُضِيْءُ السَّماواتِ والأرْضِ حقيقةً كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[الزُّمر:٦٩] وهو سُبْحانَهُ: خالِقُ النُّورِ، وهذا النورُ المخلوقُ بائنٌ عنهُ سُبْحانَهُ كنورِ الشمسِ والنُّجومِ.

وهو سُبْحانَهُ: مُنَوِّرُ السَّماواتِ والأرْضِ معنًى فهو: هادِي مَنْ في السّماواتِ والأرْضِ، ومُدَبِّرُ الأمرِ فيهما.

﴿مَثَلُ﴾ صِفَةُ ﴿نُورِهِ﴾ في قلبِ المؤمنِ ﴿كَـ﴾ مِثْلَ: ﴿مِشْكَاةٍ﴾ الكُوَّةُ في الحائِطِ غَيْرُ النّافِذَةِ ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ وهو: الفَتِيْلَةُ والذُّبالَةُ التي تُضيءُ والسِّراجُ والقِنْدِيْلُ ﴿الْمِصْبَاحُ فِي﴾ داخِلِ ﴿زُجَاجَةٍ﴾ تُحِيطُ بِهِ ﴿الزُّجَاجَةُ﴾ في تَوَهُّجِها وبَهائِها ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ مُضِيءٌ، مُنيرٌ، مُبِيْنٌ، مُتَلألِئٌ، ضَخْمٌ، كالزُّهرَةِ وكالدُّرِّ.

---

(١) رواه مُسْلِمٌ في صَحيْحِهِ (رقم:٣٠٢٩).

وقرأ أبو عمرٍو والكِسائيُّ: ﴿دِرِّيْءٌ﴾ وقرأ حمزةُ وشُعبةُ: ﴿دُرِّيْءٌ﴾[1] مِن الدَّرْءِ وهو: الدَّفعُ، أيْ: يَدْفَعُ الظّلامَ.

﴿يُوقَدُ﴾ المِصباحُ ﴿مِنْ﴾ زَيْتِ ﴿شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ كثيرةِ الخيرِ ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ شجرةِ الزَّيتونِ، الشَّجرةُ في مكانٍ مُرتَفِعٍ مُتَوَسِّطٍ مِن الأرضِ لا يستُرُها عَنْ الشَّمْسِ شيءٌ ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ﴾ بحيثُ لا تأتيها الشَّمْسُ إلا في الصباح ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ بحيثُ لا تأتيها الشَّمْسُ إلا في المساء ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ لِصفائِهِ وجَودَتِه ﴿يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ فكيفَ إذا مَسَّتْهُ!

﴿نُورٌ﴾ نورُ المِصباحِ ﴿عَلَى نُورٍ﴾ نورِ الزُّجاجةِ، وهكذا: قلبُ المؤمِنِ وفِطْرَتُهُ، إذا أشرق فيهما نُوْرُ الهدايةِ والعِلْمِ، وكذلكَ: يكادُ المؤمنُ لِصفاءِ قلبِهِ وسريْرَتِهِ، أنْ يعملَ بالهُدَى قبلَ أنْ يأتِيَهُ العِلْمُ، فإذا جاءهُ العلمُ: زادهُ هُدىً على هُدى ونورًا على نورٍ ﴿يَهْدِي﴾ يُوَفِّقُ ﴿اللَّهُ لِنُورِهِ﴾ لاتّباعِ القُرآنِ ودينِهِ القويمِ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ مِن عبادِهِ ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ يُبَيِّنُ: الْأَشْيَاءَ بِأَشْبَاهِهَا وَنَظَائِرِهَا تَقْرِيبًا لَهَا إِلَى الْأَفْهَامِ وَتَسْهِيلًا لِإِدْرَاكِهَا، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[الحشر] ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ لا يخفى عليهِ شيءٌ.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾

لَمّا ضرب وشبَّهَ تعالى نُور الإيمانِ بنورِ المصباحِ، بيَّنَ أنَّ أفضلَ ما يكونُ هذانِ النورانِ: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ وهي: المساجِدُ ﴿أَذِنَ﴾ أَمَرَ ووصَّى وشَرَعَ ﴿اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ حِسًّا بِأَنْ: تُبْنَى وتُطَهَّرَ، وتُرفَعُ معنًى بِأَنْ: تُعَظَّمَ وتُشَرَّفَ وتُكَرَّمَ وتُصانُ عمّا لا يليقُ بها مِن اللَّغْوِ والتِّجارَةِ ونحوِها ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ بالأذانِ والصلاةِ والذِّكْرِ والدُّعاءِ والقُرآنِ وتعَلُّمِ العِلْمِ وتعليمِهِ.

﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾ يُصَلِّي فيها ابتغاء وجْهِ الله ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ جَمعُ: غُدْوَة، وهي: أوَّلُ النهار، والبُكْرَةُ. ﴿وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ جمعُ: أَصِيل، وهو: آخِرُ النّهار والعَشِيّ. عَن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: يُصَلِّي لَهُ فِيهَا بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، يَعْنِي بِالْغُدُوِّ: صَلَاةَ الْغَدَاةِ، وَيَعْنِي بِالْآصَالِ: صَلَاةَ الْعَصْرِ، وَهُمَا أَوَّلُ مَا افْتَرَضَ اللَّهُ مِنَ الصَّلَاةِ، فَأَحَبَّ أَنْ يَذْكُرَهُمَا، وَيَذْكُرُ بِهِمَا عِبَادَتَهُ[2].

---

(١) انظر: السَّبْعة في القراءاتِ لابنِ مُجاهدٍ (ص٤٥٦) والتَّيسير للدّاني (ص١٦٢).

(٢) رواه الطَّبَريُّ في تَفسيرِهِ (١٧/٣٢٠).

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾

يُصَلِّي في تِلْكَ المساجِدِ: ﴿رِجَالٌ﴾ خَصَّ الرِّجالَ لأنَّهُم هُم المَأمورونَ بصلاةِ الجماعةِ، ويدلُّ مفهومُ المُخالفَةِ على: أنَّ صلاةَ المَرأةِ في بيتِها أفضلُ مِن صلاتِها في المَسْجِدِ ﴿لَا تُلْهِيهِمْ﴾ لا تُشْغِلُهُم ﴿تِجَارَةٌ﴾ شِراءٌ، والتِّجارةُ: شراءُ شيءٍ لِيُباعَ بالرِّبْحِ ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ عَطْفُ خاصٍّ على عامٍّ؛ وخُصَّ البَيْعُ مع دُخولِهِ في مفهومِ التِّجارةِ؛ لأنَّهُ يُلْهِي أكثرُ مِن الشِّراءِ.

﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ الإتيان بالصلاة في جماعةٍ على أَكْمَلِ وجْهٍ ﴿وَإِيتَاءِ﴾ إعطاء ﴿الزَّكَاةِ﴾ المَفروضَةِ في مصارِفِها ولِمُستحِقِّيها ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ يوم القيامَةِ الذي ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ﴾ تَضْطَرِبُ، وتتحرَّكُ مِن أماكِنِها مِن شدَّةِ الخوفِ، بَيْنَ الطَّمَعِ في النَّجاةِ مِن العذابِ والخَوفِ مِنْهُ ﴿وَ﴾ تَتَقَلَّبُ ﴿الْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ أي: تدورُ وتزِيْغُ: مِن أيِّ ناحيةٍ يُؤخَذونَ وإلى أيِّ ناحيةٍ يصيرون.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾

عَمِلوا ذَلِكَ ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ لِيُثِيْبَهُم، واللامُ: للتَّعليلِ وللعاقِبَةِ ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ على أعمالِهِم الحسنة الصالحَةِ، ويُثِيبُهُم أحْسَنَ ثوابٍ لِعمَلِهِم؛ لأنَّ الحسنةَ بعشرِ أمثالِها إلى أضعافٍ كثيرةٍ ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يُضاعِفُ ثوابَ أعمالِهِم الصالحةِ فوقَ ما يستحقّونَه مِن أعمالِهِم ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ فَيُعْطِيهِمْ أضعافَ ما عمِلوا لا حدَّ لها ولا عدَّ، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[البقرة:٢٤٥] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾[النساء]

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ باللهِ ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ الحَسَنَةُ التي عَمِلُوها وظنُّوا أنَّها تنفَعُهُمْ: ﴿كَـ﴾: مِثْلَ ﴿سَرَابٍ﴾ وهو: ما يُرَى في النَّهارِ يسيرُ في الأرضِ كأنَّهُ ماءٌ. ﴿بِقِيعَةٍ﴾ جمْعُ قاعٍ وهو: الأَرْضُ المُسْتَوِيَةُ الجَرْداءُ والأَرْضُ المُنْخَفِضَةُ والأَرْضُ المُنْبَسِطَةُ ﴿يَحْسَبُهُ﴾ يظُنُّه ﴿الظَّمْآنُ﴾ العَطشانُ ﴿مَاءً﴾ فيسيرُ إليه ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ﴾ ووقفَ عَلَيْهِ ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ وكذا الكافِرُ يَظُنُّ أنَّ أعمالَهُ تنفعُهُ

ويَطْمعُ في ثوابِها، حتَّى إذا مات وبُعِث: لم يَجِدْ ثوابَها؛ لأنَّ الكُفرَ أحبَطَها ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾ أمامَهُ ﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ أَعْطاهُ وأتمَّ له: حسابَ عملِهِ كاملًا في الدُّنيا ويومَ القيامةِ ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾. كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾[إبراهيم] ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[الفرقان].

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾﴾

﴿أَوْ﴾ لِلتَّقسيمِ، أي القِسم الثاني: مَثَلُ أعمالِ الكفارِ السَّيِّئَةِ: ﴿كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ عميقٌ لا يُدْرَكُ قَعْرُهُ ﴿يَغْشَاهُ﴾ يعلوه ﴿مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ﴾ ذلك الموجِ العُلْوِيّ ﴿سَحَابٌ﴾ غَيْمٌ كَثِيفٌ يَسْتُرُ ما يهتدِي بِهِ مِن النُّجومِ ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ مُتراكِمٌ ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظُلْمَةُ البحرِ، وظُلْمَةُ الموجِ، وظُلْمَةُ السّحابِ ﴿إِذَا أَخْرَجَ﴾ مَنْ وقَعَ في هذهِ الظُّلماتِ: ﴿يَدَهُ لَمْ يَكَدْ﴾ مِن أفعالِ المُقارَبَةِ أي: لم يَقْرُبْ مِن أَنْ ﴿يَرَاهَا﴾ يُبْصِرَها مِن شِدَّةِ الظُّلْمَةِ، وهكذا الكافِرُ، فقد تراكمَتْ عليهِ ظُلُماتُ: الكُفْرِ والجَهْلِ والشَّكِّ والحِيْرَةِ والطَّبْعِ على القَلْبِ والأعْمالِ السَّيِّئَةِ ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا﴾ مَنْ لم يرزقه الله هُدَىً، وعِلْمًا بكتابه وسُنَّةِ نبيِّهِ ﷺ، وعملاً صالِحًا ﴿فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾﴾ فما له هُدىً يهتدِي بِهِ، ولا كتابٌ يستنيرُ بِهِ. كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾[الجاثية].

في هاتينِ الآيتينِ: تشبيهٌ لِأعمالِ الكفارِ المَعنويَّةِ بالسَّرابِ وبِظُلُماتِ البحرِ الحِسِّيَّيْنِ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَعْلَمْ ﴿أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ﴾ يُنَزِّهُهُ ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ﴾ يسبّحُ لَهُ مَنْ في ﴿الْأَرْضِ﴾ مِن مخلوقاتِهِ ﴿وَ﴾ تُسبِّحُ لهُ ﴿الطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ باسِطاتٍ أَجْنِحَتَها في الهواء ﴿كُلٌّ﴾ مِنْ تِلك المخلوقاتِ ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ اللهُ ﴿صَلَاتَهُ﴾ صلاةَ ودُعاءَ مَنْ يُصلّي منها كالإنسانِ ﴿وَتَسْبِيحَهُ﴾ تسبيحَ مَن يُسَبِّحُ، ودُعاءَ مَنْ يدعُو منها كالطَّيْرِ، وقِيلَ: كُلُّ المَخلوقاتِ قَدْ علِمَتْ -هي نفسُها- كيفيةَ صلاتِها وتسبيحِها،

بإلهامِ اللهِ: لِغَيرِ الثَّقَلَيْنِ، وبتعليمِهِ سبحانَهُ: للثَّقَلَيْنِ بما أرسلهُ إليهِم من رُسُلِهِ وما أَنْزَلَهُ عليهم مِن كُتُبِهِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ لا يَخفى عليهِ مِن أفعالِهم شيءٌ.

كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾[الإسراء].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ﴾ وحدَهُ ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ الرجوع يوم القيامَةِ للحساب والجزاء، وقُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ في الموضِعَينِ: للحصرِ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَعْلَمْ ﴿أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي﴾ يَسُوقُ ويُسَيِّرُ ﴿سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ يَضُمُّ ويجمعُ أجزاء بعضه إلى بعض ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ متراكمًا، والرُّكامُ: ما يُجمَعُ ويُضَمُّ بعضُهُ إلى بعضٍ ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ مِن داخِلِ السحاب.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ﴾ جِهَةِ ﴿السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ﴾ مِن قِطَعِ سَحابٍ عظيمةٍ كثيفةٍ تُشبِهُ الجبالَ ﴿فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ المطرُ الجامِدُ مِنْ بُرودَتِهِ، كحبّاتِ الحصى ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ بالبَرَدِ والمَطَرِ: ﴿مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾ مِن عبادِهِ ﴿يَكَادُ﴾ يَقْرُبُ ﴿سَنَا﴾ ضَوْءُ ﴿بَرْقِهِ﴾ البَرْقُ: النُّورُ الناشئُ عن اصْطِدامِ السُّحُبِ بعضِها ببعضٍ ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾﴾ يُعْمِيها ويَخْطِفُها؛ مِنْ قُوَّةِ ضَوْئِهِ وشِدَّةِ لَمَعانِهِ وبَرِيْقِهِ.

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾

﴿يُقَلِّبُ﴾ يُعاقِب ويُعَقِّبُ ﴿اللَّهُ: اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ حِسًّا: بإتيانِ أحدِهما بعد الآخرِ، ويتصرّفُ فيهما: طولًا وقِصَرًا، وحرًّا وبَرْدًا.

ومَعْنىً: بما يحدُثُ فِيهما مِن تَقلُّبِ أحوالِ المخلوقاتِ بينَ عِزٍّ وذُلٍّ ونصرٍ وهزيمةٍ وغِنًى وفَقرٍ وسعادَةٍ وشقاءٍ ونحو ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ مِنْ الآياتِ مِن دلائِلِ الرُّبوبيَّةِ ﴿لَعِبْرَةً﴾ عِظَةً ودَلالةً ﴿لِأُولِي﴾ أصحابِ ﴿الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾ البصائر، فيستدلونَ بذلِكَ على قُدْرَةِ اللهِ ووحدانيَّتِه.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾[آل عمران].

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ﴾ ما يَدُبُّ على وجْهِ الأرْضِ مِنْ الحيوانِ ﴿مِنْ مَاءٍ﴾ الماء المعروف: السائلُ الشفّافُ الذِي لا لونَ لهُ ولا طَعْمَ ولا رائِحَةَ، أو: النُّطفة وهي: المَنِيّ، والأوَّلُ أَعَمُّ مِن الثاني.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ زحفًا كالحيّاتِ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسانِ والطَّيْرِ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ كالأنْعامِ ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ مِمّا ذَكَرَ ولم يَذْكُرْ مِمّا: يمشي على أكثرَ مِن أربعٍ كالعناكِبِ وغيرِها ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ لا يُعجِزُهُ شيءٌ.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا﴾ على مُحَمَّد ﷺ: ﴿آيَاتٍ﴾ آياتِ القُرآنِ ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ واضحاتٍ، مُوْضِحاتٍ ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي﴾ يُرْشِدُ ويُوَفِّقُ ﴿مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ﴾ طريقٍ ﴿مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ لا اعوجاجَ فيهِ، والمراد به: الإسلامُ، المُوصِلُ إلى رِضاهُ والجنّةِ.

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ﴾ المُنافِقونَ بألسِنَتِهِم كذِبًا من غيرِ يقينٍ ولا إخلاصٍ: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ اللهَ ورَسولَهُ ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى﴾ يُعرِضُ ﴿فَرِيقٌ﴾ طائِفَةٌ ﴿مِنْهُمْ﴾ بِقُلوبِهِم عَن طاعَةِ الله ورسولِهِ في الجهادِ في سبيلِ اللهِ وغيرِهِ ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ بعد تَصريحِهِم وزَعْمِهِم: الإيمانَ باللهِ ورسولِهِ وطاعتِهِما ﴿وَمَا أُولَئِكَ﴾ المُتَوَلُّونَ والمُعرِضونَ عَنْ طاعة الله ورسوله ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ الإيمانَ الخالِصَ الصادِقَ، وإنْ ادَّعَوا أنَّهم مُؤمِنونَ.

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَإِذَا دُعُوا﴾ هؤلاء المنافِقونَ ﴿إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ﴾ الرَّسولُ ﷺ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فيما يَخْتَصِمونَ فيهِ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ عَنْ التَّحاكُمِ إلى اللهِ وشريعَتِهِ إذا: كانَ الحُكْمُ عليهم؛ لتَفضيلِهم القوانينَ الوضعيّةِ المُوافِقَةِ لِأهوائِهم على حُكْمِ الشريعةِ الإسلاميّة.

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾[النساء].

﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ﴾ لِلمنافِقينَ ﴿الْحَقُّ﴾ على مَن يُخاصِمونَهُم ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ مُنْقادِيْنَ، مُطِيعينَ، سامِعِيْنَ، مُسرعينَ، خاضِعِينَ، مُقِرّيْنَ؛ لِعِلْمِهِم أَنَّهُ ﷺ يقضِي بالحقِّ.

﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿أَ﴾ همزة الاستفهام بمعنى: هَلْ ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ هؤلاءِ المنافقينَ المُعرضِينَ عَن التَّحاكُمِ إلى اللهِ ورسولِهِ ﴿مَرَضٌ﴾ عِلَّةٌ مُلازِمَةٌ لهُم مِن: نفاقٍ وكُفْرٍ ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ شكّوا في أنَّه رسولُ اللهِ ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ﴾ يَمِيْلُ في حُكْمِهِ ويَجُوْرُ ويَظْلِمُ ﴿اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ في الحُكْمِ؟ ﴿بَلْ﴾ ليسَ لِشَيءٍ مما ذُكر، وإنَّما: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ لِأنفُسِهِم؛ بِسببِ: عَدَمِ الرِّضا والتَّسليمِ بحُكْمِ الشَّرْعِ، وَظالِمُونَ لِغَيْرِهِم بِسَبَبِ: خَوْفِهِم أَنْ يُؤْخَذَ منهم ما لَيسَ لهم فيهِ حقٌّ، ويُعطَى لِخُصومِهِم.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾

لَمّا ذكرَ موقفَ المنافِقِينَ الرافضِ لِحُكْمِ اللهِ ورسولِهِ، ذكرَ موقفَ المؤمنينَ الموقِنينَ به، فقالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أيْ: كتابِ اللهِ ﴿وَرَسُولِهِ﴾ أيْ: سُنَّةِ رسولِهِ ﷺ ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا﴾ برغبَةٍ ومُبادَرَةٍ: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولَهُ ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أَمْرَهُ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ الفائزون، الناجُونَ في الدُّنيا والآخرة.

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ويَسْتَسْلِمْ لِحكمِهما ويعمَلْ بهِ ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ يَخَفْ فيما مَضَى مِن ذنوبِهِ، والخشيةُ: خوفٌ يشوبُهُ تعظيمٌ ومَعرِفَةٌ ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فِيما يُسْتَقبلُ: بامتثالِ أمرِهِ، واجتنابِ نهيِهِ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ بخيريْ الدُّنيا والآخرةِ.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَأَقْسَمُوا﴾ حَلَف المنافقونَ ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أَقْوَى وأَغْلَظَ وأشَدَّ وأَقْصى وغايَةَ أَيْمانِهِم: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ بالجهادِ ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ لهُ ﴿قُلْ﴾ أيُّها الرسول ﴿لَا تُقْسِمُوا﴾ لا تحلفوا:

﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ أيْ: عُرِفَتْ طاعتُكُمْ، أنَها قولٌ بلا فِعلٍ، تُطيعون بنفاقٍ وكذِبٍ وتدليسٍ.

وقيلَ: لِتَكُن طاعتُكُم بالمعروفِ بِدونِ حَلِفٍ وأيمانٍ.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾ مِمّا تُخفونَ وما تُعلنونَ، وإنْ خَفِيَ نِفاقُكُم على النّاسِ فإنَّهُ لا يخفى على الله.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المنافقينَ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بإخلاصٍ في الظاهر والباطن ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ تتولَّوا وتَتركوا: ما أُمِرْتُم بِهِ من طاعتهما ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ ما كُلِّفَ بِهِ من التبليغ ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ ما كلّفتم بِهِ من الطاعةِ والعملِ ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ﴾ بفعلِ ما أَمَرَكُمْ بِفعلهِ وبالكَفِّ عمّا نَهاكُمْ عنهُ ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى الحَقِّ ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ الواضحُ، وليسَ عليهِ إجبارُكُمْ على الهدايةِ، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾[الرعد] ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾[الغاشية]

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ باللهِ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ: لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ يَجْعَلُهُم خُلَفَاءَ، ويَجْعَلُهُم وُلاةً وأئمّةً وقادةً على النّاسِ، ويُوَرِّثَنَّهُم: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وينصرُهُم على أعدائِهِم ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مِن المؤمنِيْنَ ﴿وَ﴾ وَعَدَهُمْ: ﴿لَيُمَكِّنَنَّ﴾ يُثَبِّتُ ويُوطِّئُ ﴿لَهُمْ دِينَهُمُ﴾: الإسلامَ ﴿الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[المائدة:٣].

﴿وَ﴾ وَعَدَهُمْ ﴿لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ مِن الكُفّارِ ﴿أَمْنًا﴾.

عَنْ ثَوْبَانَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ)**[1].

وعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **(لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ)**[2].

وفي حديثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ﷺ -مُختصرًا- قَالَ: بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الفَاقَةَ، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطْعَ السَّبِيلِ، فَقَالَ: **(يَا عَدِيُّ، هَلْ رَأَيْتَ الحِيرَةَ؟)** قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا، قَالَ: **(فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ، حَتَّى تَطُوفَ بِالكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى)** قُلْتُ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ؟ قَالَ: **(كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلاَ يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ)** قَالَ عَدِيٌّ: فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَكُنْتُ فِيمَنِ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ، لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو القَاسِمِ ﷺ: **(يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ)**[3].

وقد اتَّسَعَتْ دولةُ الإسلامِ حتى بلغتْ: الصينَ شرقًا، والأندلُسَ وبلادَ البربرِ غربًا، وبلادَ الرُّوسِ شمالاً، وأقصى إفريقيةَ جنوبًا، وسيُخْرِجُ اللهُ المَهديَّ في آخرِ الزمانِ، يحكُمُ الأرضَ بالإسلامِ ويملؤُها عدلًا.

وسأُنْجِزُ لهُم ما وعدتُّهُم؛ ما دامُوا: ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ وحْدِي ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ﴾ باللهِ وبنِعَمِهِ ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ النَّصرِ والأَمْنِ والتَّمكينِ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ الخارِجون عَنْ طاعةِ اللهِ.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿وَأَقِيمُوا﴾ أدّوا ﴿الصَّلَاةَ﴾ على أَكْمَلِ وجهٍ ﴿وَآتُوا﴾ أعطوا ﴿الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بِفِعْلِ ما أمركُمْ بِهِ وتَرْكِ ما نهاكُم عنْهُ؛ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ لِلتّعليلِ بمعنى: لِأجْلِ، وللتَّرجّي ﴿تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

---

(١) رواه مُسْلِمٌ في صَحيْحِهِ (رقم:٢٨٨٩).

(٢) رواه أحمدُ في مُسْنَدِهِ (رقم:١٦٩٥٧) والحاكمُ في مستدركِهِ (رقم:٨٣٢٦) والبيهقيُّ في السُّنَنِ الكُبرى (رقم:١٨٦١٩).

(٣) رَواهُ البُخارِيُّ في صَحيْحِهِ (رقم:٣٥٩٥).

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ لا تَظُنّ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ﴾ فائِتِينَ وَمُفْلِتِيْنَ ومُثَبِّطِيْنَ وقادرينَ على أَنْ يُعجِزُوا اللهَ بِالهربِ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ إذا أردْتُ أَنْ أُنْزِلَ بِهم العذابَ ﴿وَمَأْوَاهُمُ﴾ مَسْكَنُهُم ﴿النَّارُ﴾ جهنَّمُ ﴿وَلَبِئْسَ﴾ ساءَ ﴿الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾ المَرْجِعُ والمَآلُ الذي يصيرونَ إليه.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾

لَمّا ذكرَ تعالى أحكامَ استئذانِ الأحرارِ البالغينَ في أوائِلِ السُّورةِ، بَيَّنَ تعالى أحكامَ استئذانِ العبيدِ والأحرارِ غيرِ البالغين، فقالَ تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ باللهِ وعملوا بِشريعتِهِ ﴿لِـ﴾ اللام لِلأمْرِ ﴿يَسْتَأْذِنْكُمُ﴾ يَطْلُبْ مِنكم الإذْنَ ﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ العبدُ والأَمَةُ والرَّقِيْقُ، ﴿وَ﴾ الأطفالُ ﴿الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ﴾ البلوغَ والاحتلامَ وهو: إنزالُ المَنِيِّ يَقَظَةً أَوْ منامًا، وعُبِّرَ عنْ البلوغِ بالاحتلامِ؛ لأنه أقوى دلائلِهِ ﴿مِنْكُمْ﴾ مِنْ الأحرارِ:

﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ في ثلاثةِ أوقاتٍ: ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ وقتُ إبدالِ ثيابِ النَّوْمِ بِثيابِ اليَقَظَةِ.

﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ﴾ وقتِ ﴿الظَّهِيرَةِ﴾: مُنتصَفِ النَّهارِ والقَيْلُولَةِ، حينَ تَخْلَعونَ ثيابَكُم.

﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ لأنَّهُ وقتُ نومِكُم، وخَلْعُ ثيابِ اليَقَظَةِ ولُبْسُ ثيابِ النَّوْمِ.

هذهِ ﴿ثَلَاثُ﴾ أوقاتٍ ﴿عَوْرَاتٍ﴾ جَمْعُ: عَوْرَةٍ، والعَوْرَةُ: كُلُّ ما يُسْتَحْيا مِنه إذا ظَهَرَ ﴿لَكُمْ﴾ لا يَدخلونَ فيها عليْكُمْ إلّا بعدَ إذنِكُم.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ حَرَجٌ ﴿وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ المماليكُ والصبيانُ في دخولِهِم دُوْنَ استئذانٍ ﴿جُنَاحٌ﴾ حَرَجٌ وإثْمٌ ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ فيما عدا الأوقاتِ الثلاثةِ؛ لأَنَّهُم: ﴿طَوَّافُونَ﴾ كَثيرو التَّطْوافِ، يتردَّدُون عليكم ويسْعُونَ في خِدمَتِكُم ﴿عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ﴾ يطوفُ ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾ لأجلِ الخدمَةِ ونحوِها؛ فيتعذّرُ ويَشُقُّ مَنْعُهُم مِن الدُّخولِ في كُلِّ وقتٍ إلّا بِاستِئذانٍ ﴿كَذَلِكَ﴾ كما بيّن اللهُ لكمْ أحكامَ الاستِئذانِ: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالَّةِ على ما شَرَعَهُ مِنْ أحكامٍ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالِحِ عبادِهِ ﴿حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ فيما يُشَرِّعُ مِنْ أحكامٍ.

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ سِنَّ الاحْتِلامِ والبُلوغِ ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ لِيَطْلبوا الإذْنَ: عندَ الدُّخولِ على البُيوتِ في كُلِّ الأَوقاتِ ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الكبارُ البالِغُونَ ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ العَجائِزُ اللّاتي قَعَدْنَ عَنْ الحَيْضِ والحَمْلِ لِكِبَرِهِنَّ ﴿اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لا يَطْمَعْنَ ولا يَرْغَبْنَ في الزَّواجِ ولا يُطْمَعُ فِيهِنَّ ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ حَرَجٌ وإثْمٌ ﴿أَنْ يَضَعْنَ﴾ أمامَ غيرِ المَحارِمِ: ﴿ثِيَابَهُنَّ﴾ التي تكونُ فَوقَ الثيابِ الظاهِرَةِ: كالجِلبابِ وهو: العباءَةُ، والخِمارِ الذي على الرأسِ، والقناعِ والنِّقابِ اللذانِ يكونانِ على الوجْهِ ونحوِها ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ غير مظهراتٍ محاسِنَهُنَّ ومُتزَيِّناتٍ ومُظْهِراتٍ زِيْنَتَهُنَّ الخَفِيَّةَ التي أُمِرْن بسترها، وغيرَ كاشِفاتٍ شُعورَهُنَّ، ولا مُتعرِّضاتٍ بالتَّزَيُّنِ لِيَنْظُرَ إليهنَّ الرجالُ ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ﴾ يتحجَّبْنَ ويَتَستَّرْنَ: ﴿خَيْرٌ﴾ أَفْضَلُ وأحْسَنُ ﴿لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِأقوالِكُمْ ﴿عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ بأفعالِكُمْ وسيُجازِيْكُمْ عَلَيها.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى﴾ الَّذي فَقَدَ بَصَرَهُ ﴿حَرَجٌ﴾ إثْمٌ ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ إنْ تَركوا ما لا يَستَطِيعونَ القيامَ بِهِ مِن التّكاليفِ، كالجِهادِ في سبيلِ اللهِ ونحْوِهِ.

﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ إثمٌ في: ﴿أَنْ تَأْكُلُوا﴾ بدونِ إذْنٍ ﴿مِنْ: بُيُوتِكُمْ﴾ ومنها: بُيُوتُ أَبْنائِكُم، عَنْ عُمَارَةَ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ عَمَّتِهِ، أَنَّهَا سَأَلَتْ عَائِشَةَ ﵂ فِي حِجْرِي يَتِيمٌ أَفَآكُلُ مِنْ مَالِهِ؟ فَقَالَتْ: قَالَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**إِنَّ مِنْ أَطْيَبِ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَوَلَدُهُ مِنْ كَسْبِهِ**)[1]، وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ أَبِي اجْتَاحَ مَالِي، فَقَالَ: (**أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ**) وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**إِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَطْيَبِ كَسْبِكُمْ، فَكُلُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**)[2].

﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾ فَكما أُذِنَ لِلأقارِبِ الأكلُ بدونِ إذْنٍ، فإنَّهُ تجبُ النفقةُ على الأقارِبِ المُعسرينَ عندَ الحنابِلَةِ والحنفيَّةِ.

﴿أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ ما وُكِّلْتُم على حِفْظِهِ مِن البُيوتِ كالحارِسِ، أَوْ أُذِنَ لكم بالتَّصرُّفِ فيها كالخادِمِ والمُؤتَمَنِ ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ الصَّدِيْقُ: **الصاحِبُ والرَّفيقُ والعَشِيرُ والخَلِيْلُ والوَلِيُّ الحَمِيْمُ ومَنْ صادَقَكَ وصَدَقَكَ في مودَّتِهِ ومَحَبَّتِهِ**؛ وذلِكَ لِطِيْبِ نَفْسِهِ عادَةً بِذلِكَ.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا﴾ بِالمعروفِ مِن بيوتِ مَن ذُكر، فإذا صرَّحَ أحدُهُم بالمنعِ مِن الأكلِ: فلا يُؤكَلُ مِن بيتِهِ إلا الأَبُ مع أولادِهِ ﴿**جَمِيعًا**﴾ مُجْتَمِعين مَع بعضِكُم، وهو أَفْضَلُ؛ لحديثِ وَحْشِيِّ بْنِ حَرْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَأْكُلُ وَلَا نَشْبَعُ، قَالَ: (**فَلَعَلَّكُمْ تَفْتَرِقُونَ؟**) قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: (**فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ**)[3].

﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ **فُرَادَى، مُتَفَرِّقِيْنَ**، وذلكَ أنَّ بعضَ العربِ كانَ يتحرَّجُ أنْ يأكلَ وحدَهُ حتّى يجدَ مَنْ يُشارِكَهُ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾[النساء: ٢٩] فَكَانَ الرَّجُلُ يَحْرَجُ أَنْ يَأْكُلَ عِنْدَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ بَعْدَ مَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَنَسَخَ ذَلِكَ الْآيَةُ الَّتِي فِي النُّورِ، قَالَ: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿أَشْتَاتًا﴾ كَانَ الرَّجُلُ الْغَنِيُّ يَدْعُو الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِهِ إِلَى الطَّعَامِ، قَالَ: إِنِّي لَأَجَنَّحُ أَنْ آكُلَ مِنْهُ، وَالتَّجَنُّحُ: الْحَرَجُ، وَيَقُولُ: الْمِسْكِينُ أَحَقُّ بِهِ مِنِّي، فَأُحِلَّ فِي ذَلِكَ أَنْ يَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأُحِلَّ طَعَامُ أَهْلِ الْكِتَابِ[4].

---

(١) رواه أبو داوُد في سُنَنِهِ (رقم:٣٥٢٨) والترمذيُّ في سُنَنِهِ (رقم:١٣٥٨) والنسائيُّ في سُنَنِهِ (رقم:٤٤٤٩) وابنُ ماجةَ في سُنَنِهِ (رقم:٢٢٩٠).

(٢) رواه ابنُ ماجةَ في سُنَنِهِ (رقم:٢٢٩٢) وأحمدُ في مُسْنَدِهِ (رقم:٦٩٠٢).

(٣) رواه أبو داوُد في سُنَنِهِ (رقم:٣٧٦٤) والطبراني في المعجم الكبير (١٣٩/٢٢) والحاكم في مستدركِهِ (رقم:٢٥٠٠) والبيهقيُّ في السُّنَنِ الكُبرى (رقم:١٠٣٥٩).

(٤) رواه أبو داوُد في سُنَنِهِ (رقم:٣٧٥٣) والبيهقيُّ في السُّنَنِ الكُبرى (رقم:١٤٦٠٠).

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾ بيوتَكُم أو بيوتَ غيرِكُمْ ﴿فَسَلِّمُوا﴾ الأَمْرُ للاستِحبابِ، فالسلامُ: سُنَّةٌ مُؤَكَّدَةٌ وردُّه: واجبٌ ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ على مَنْ فِيها بأن تقولوا: السّلامُ عليْكُمْ، وإِنْ لم يَكُنْ فيها أَحَدٌ فقولُوا: السَّلامُ عَلَينا وعَلى عِبادِ اللهِ الصّالِحين.

ثُمَّ أَثْنَى سبحانَهُ وتعالى على السّلامِ بقولِهِ: ﴿تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ شَرَعَها لَكُم ﴿مُبَارَكَةً﴾ كثيرةَ الخيرِ؛ لِمَا تَنْشُرُهُ مِن المودَّةِ والأُلْفَةِ ﴿طَيِّبَةً﴾ تَطِيبُ بِها نفْسُ سامِعِها، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **(لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى: تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى: تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ)**[1].

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ﴾ يُوضِّحُ ﴿اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ تَفْهَمونَ آياتِهِ وتعملونَ بما فيها.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

لَمّا ذَكَرَ اللهُ الاستئذانَ عندَ الدُّخولِ، ذَكَرَ الاستِئذانَ عندَ الانصرافَ، فقالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الصّادقون في إيمانهم هم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ﴾ مع النبي ﷺ ﴿عَلَى﴾ في ﴿أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ يجمَعُهُم لِمَصْلَحَةٍ المسلمينَ: كالجُمُعةِ والعيدِ والجهادِ ومجالسِ التَّشاوُرِ ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ لم ينصرِفوا، لِأمرٍ أو غَرَضٍ طرأَ لهُم ﴿حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ يطْلُبوا مِنْهُ الإِذْنَ في الانصرافِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ حقًّا ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ﴾ طَلَبوا مِنْكَ الإِذْنَ ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أَمْرِهِم، وما يَهُمُّهُم ﴿فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ﴾ أنْ تَأْذَنَ لَهُ ﴿مِنْهُمْ﴾ بالانصرافِ ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ﴾ واطلبْ المغفِرَةَ لِذُنوبِهِمْ ﴿اللَّهَ﴾ لأنَّ عُذرَهُم قد يكونَ غيرَ مُبيحٍ للاستئذانِ ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوبِ مَنْ تابَ مِن عبادِهِ ﴿رَحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ بهم.

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

---

(١) رواه مُسْلِمٌ فِي صَحِيْحِهِ (رقم:٥٤).

شَرِّفُوا وعظِّموا أيُّها المؤمنون رسولَ الله بِأَنْ: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ﴾ نِداءَ ﴿الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ﴾ باسمه مثل: يا مُحَمَّدُ، أَوْ باسمِ أبيهِ مثلَ: يا ابنَ عبدِ اللهِ ﴿كَدُعَاءِ﴾ كنداءِ ﴿بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ بأسمائِكُم فيما بينكُم، ولكنْ قولوا: يا رسولَ اللهِ، يا نبيَّ اللهِ، بأدبٍ ولينٍ وتواضُعٍ وخَفْضِ صوتٍ.

وإذا دعاكُم الرسولُ ﷺ فسارِعوا إلى إجابتِهِ، واعلموا أنَّ دعاءَهُ ﷺ مُستجابٌ فاحذروا أَنْ يدعوَ عليكُمْ.

﴿قَدْ﴾ لِلتَّحْقِيْقِ ﴿يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ المنافِقِيْنَ ﴿الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ﴾ يخرجونَ بِخُفْيَةٍ وينصرفون ﴿مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ يَتَسَتَّرُ بعضُهُم بِبعضٍ، خُفْيَةً، خِلافًا، دونَ أنْ يستأذِنوا، عَنْ سُفيانَ الثَّورِيِّ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ مِنْ الصَّفِّ في القِتالِ[1].

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ﴾ يُعْرِضونَ ويَحِيْدونَ ويَصُدُّونَ ﴿عَنْ أَمْرِهِ﴾ سبحانَهُ وتعالى ورسولِهِ ﷺ بِتَرْكِ طاعَتِهما ﴿أَنْ: تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ نَتيجَةُ الاختبارِ السَّيِّئَةُ في دينِهِم مِنْ: كفرٍ ونفاقٍ وبِدْعَةٍ وضلالٍ ومِحْنَةٍ وبَلاءٍ وطبْعٍ على قُلوبِهِم ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ﴾ كُرِّرَ هذا اللفظُ للاعتناءِ بالتَّهديدِ والتَّحذيرِ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ مُؤْلِمٌ، موجِعٌ في دُنياهُم مِنْ: قَتْلٍ وحدٍّ وحَبْسٍ وذُلٍّ وتَسَلُّطِ سُلطانٍ وزلازلَ ونحوِها، وفي آخِرَتِهِم: بِعذابِ النارِ.

وتدلُّ الآيةُ على: أنَّ الأَمْرَ للوجوبِ ما لَمْ يصرِفْهُ صارِفٌ لِلنَّدْبِ أو الإباحَةِ؛ لِأَنَّهُ رتَّبَ الوعيدَ على تركِهِ.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾

﴿أَلَا﴾ حرفُ التنبيهِ للإيذانِ بانتهاءِ الكلامِ ﴿إِنَّ لِلَّهِ﴾ وحدَهُ ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خَلْقًا ومُلْكًا وتَدْبيرًا ﴿قَدْ﴾ لِلتَّحْقِيْقِ ﴿يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ مِن الأَحوالِ، وقدْ أحاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ شيءٍ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾﴾[يونس] ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾[الأنعام].

ثم انتقلَ الكلامُ من الخطابِ إلى الغَيْبَةِ على أُسلوبِ الالتِفاتِ ﴿وَيَوْمَ﴾ القيامَةِ ﴿يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ بالبعثِ بعْدَ الموتِ ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ﴾ يُخْبِرُهُمْ ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ في الدُّنيا ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾

---

(١) رواه ابنُ أبي حاتمٍ في تفسيره (٨/٢٦٥٦).

كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾[الكهف] ﴿يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾[القيامة].

وصلى اللّه وسلم على نبيِّنا محمد

(انتهى بحمدِ اللهِ وفضلِهِ، مُقرَّر تفسير (٣) سورة مريم والنور على يدِ مُقَيِّدِهِ: د. صالح الثنيان –

البريد الالكتروني: abohithm@gmail.com)